خطايا أحرقتني

رواية

مؤمنة محمود

الجزء الثاني

من رواية "وكان الشيطان ملاكاً"

تدقيق لغوي:

عبد الله راتب النفاخ

تصميم الغلاف:

وئام حسام ريحاوي

الإهداء

إلى سوريتي ما بعد التحرير...

يا من نهضتِ من ركامك كأنكِ معجزة.

إليكَ يا وطناً لم يخن أهله... رغم ما خذله.

هذه الحكاية لخطاك التي عبرت النار...

ولقلوب مازالت تضيء من تحت الرماد.

الوطن يُشبه الأم الحنون...

في نهاية الحرب يعود إليه جميع أبنائه، حتّى العاق منهم.

لم يكن في الكوخ ما يدلّ على الحياة سوى الدخان المتصاعد من منفضة متخمة بأعقاب السجائر المحترقة، وكأنّ الرائحة امتزجت بالهواء نفسه، فصار استنشاقها عادة له.

جلس أمام الطاولة، رمى عقب السيجارة في المنفضة، أمسك القلم، وبدأ يكتب:

"سارة"...

ترك القلم، ما عساه يكتب، تأمّل الستائر المغلقة منذ زمنٍ لا يذكره، الضوء المتسلل عبر شقوقها يشبه محاولة التماس الغفران من امرأة عنيدة.

أعاد النظر إلى اسمها، ثمّ خطّ بخطٍ يرتجف ندماً:

كل شيء هنا متعب، الكرسي، الطاولة، الخزانة التي تئنّ كلّما فتحتها، حتّى الحروف التي أكتبها لكِ مثقلة بالأسى.

أهنّئكِ يا سارة لأنّك عدتِ إلى المدينة، بينما لا أزال على حدودها، لا... لأنهم منعوني من دخولها، بل لأنّكِ لم تفتحي لي الباب بعد.

أخيراً... اعترف بي الوطن، ومنحني هوية، لكن ما فائدة وطن لا يجمعني بك في ساحاته.

لقد تحررت المدينة منهم، لكنني أشعر أن قلوب أهلها مازالت تحت وطأة الاحتلال.

الوطن الذي حلمتِ به أنتِ وصبا عاد إليكما، لكنّكما لم تعودا كما كنتما.

صمتَ قليلاً، تأمّل المشجب المائل الذي عَلّق عليه ثيابه القديمة، التي كان يرتديها حين قتل طفله ودفنه بيديه القاسيتين.

تنهّد وأكمل:

قتلته... نعم... لأنني جُبنتُ عن حبّه كما يليق بأب، ولأنّ وجهه كان يشبه خطيئتي.

سامحيني، ولا تنسي أنني مازلتُ أكتب لكِ لتغفري وتفتحي حدود المدينة.

رفع عينيه نحو النافذة، تأمّل غيوم السماء المكفهرّة، وكأنّ المطر سينهمر ليغسل ما عجزت عنه الدموع.

حمل السيجارة بين أصبعيه، أشعلها، وقال لنفسه:

"أنا لم أقتل طفلي فقط... بل قتلتُ آخر ما كان طاهراً فيّ".

أمسك السيجارة في يده اليسرى، وأكمل كتابة الرسالة:

لا أعرف كيف أكمل لكِ ألمي يا سارة، ولا أعلم هل ستقرئين ما أكتبه، أو تحرقينه، كما أحرقتُ كل ما كان جميلاً فينا.

لكنّي سأكتب على أيّ حال، فليس لي في هذا الكوخ من متنفّس سوى هذا الورق.

لم أعد أفرّق بين ليلٍ ونهار، كل شيء صار رمادياً، حتّى الشمس تطلّ مترددة كأنها تخشى أن تراكِ بداخلي.

مازلتُ على أطراف مدينتك التي طردوني منها ذات يوم، حينها لم أشعر بحبّ الوطن في قلبي، ربّما لأنني لم أصفّق للباطل مثلهم.

أسكن في كوخ عتيق، الستائر منسدلة منذ زمن لم أعد أذكره، لا لأمنع الضوء، بل لأحجب عني عيون الشتاء الذي يذكّرني بكِ.

المنفضة مليئة بأعقاب الكلام الذي لم أجرؤ على قوله.

كلّ شيء هنا متعب... حتى الورق الذي أكتب عليه صار يعرف خطاياي أكثر مما تعرفين.

سارة...

المدينة تلتمع بأضوائها الباردة، وأنا هنا أراقبها كما يراقب الجاني قبر ضحيته، كُتبَ عليّ أن أظلّ أسير الجبال والتلال، أراقب تحرّكات المدينة من علو.

أعود لأخبركِ بأن مدينتك منحتني هوية، بطاقة مختومة تحمل اسمي، لكن ما فائدتها إذا كانت لا تفتح لي باب بيتك؟

ما الفائدة من اعترافهم بي على الورق، فيما أظلّ منفياً من قلبك؟

أتعلمين؟

أحياناً أسمع في الليل بكاء طفل، لا أدري أهو خيالي، أم إنه صدى لصرخة قديمة لم تزل تتردد في رأسي.

لا يمرّ يوم دون أن أستعيد تلك اللحظة، حين رأيته بين يديكِ وجهه صغير، هشّ، مائل إلى الغرابة والدهشة.

كان مشوّهاً، نعم، لكني كنتُ أكثر تشوّهاً.

أنتِ نظرتِ إليه نظرة أم... وأنا نظرتُ إليه نظرتي إلى ذنب.

ولمّا حملته، لم أحمله مثل الآباء، بل كمن يحمل وزر خطيئة يريد الخلاص منها بأي ثمن، وحين أطبقتُ يدي على عنقه، لم أقصده هو، بل ضعفي، أو هكذا ظننت.

لكنّ الحقيقة يا سارة، أنني لم أقتل طفلك فقط، بل قتلتُ نفسي، وقتلتكِ معي، وكل ما تلا ذلك اليوم كان مجرّد موت متنكّر في هيئة حياة.

سارة...

الكوخ بارد، حتى النار التي أشعلها تنطفئ دون سبب، وكأنّها ترفض منح الدفء لقاتل.

أحياناً أضحك من نفسي، أمدّ يدي نحو المشجب لأبدّل قميصي، فأجدني أرتدي ثيابي التي أبدلتها منذ عام وكأنني لا أستحق تغيير جلدي.

أعيش على السجائر، على ذكراكِ، على الندم.

هل تعلمين أيّ شيء أقسى من الغفران؟

أنه لا يُشترى بالاعتذار، بل يُمنح من يدٍ لا تزال ترتجف من أثر الطعنة، ووجهك لم يعد يقترب مني إلا في الحلم، حين أراكِ تمشين بين الركام بوجهٍ من ألم، تبحثين عن الطفل الذي دفنته بيدي، وأنا أصرخ "هو هنا في صدري، لم يمت... لم يمت".

سارة لو تعلمين كم أحببتكِ بعد الخراب، حبّاً بلا أمل... بلا جسدٍ... بلا ضوء، يشبه السجائر التي أحرقها وأنا أعرف أنها ستقتلني، ومع ذلك أشعلها لأنها وحدها تفهم معنى الاحتراق.

أنا لم أكن شيطاناً تماماً، بل إنسانٌ خائفٌ، أعمى من شدّة الذنب وأحمق من شدّة الحب.

كنتُ أظنّ أنني أحميكِ من عاري، ولم أدرك أنني أغرقك فيه أكثر.

سارة... إن كان في قلبك ذرّة حب لي، لو ظلّت فيكِ رغبة في سماع صرخة رجل ضاع بين الخطيئة والغفران فأرسلي لي ورقة بيضاء، بيضاء فحسب، وسأفهم أن الغفران ممكن ولو بعد الحريق.

مالك

طوى الرسالة بعناية كأنه يخشى على كلماتها من الهرب، سمع طرقاً على الباب، نهض بتثاقل، فتح الباب، فرأى يزناً أمامه، يحمل على كتفه معطفه الذي اتّسخ من أثر الطريق.

أفسح مالك المجال له، دخل وارتمى على الكرسي جوار المدفأة، ألقى نظرة سريعة على المكان الصغير المزدحم بأوراق مجعّدة وعلب تبغ فارغة، نظر إلى أخيه، ثم قال:

- أمازلتَ تكتب لها؟

جلس مالك على ركبتيه أمام المدفأة ليعيد إشعالها، ردّ وهو منهمك بحطب المدفأة الرطب:

- أكتب لأتذكّر أنني السبب فيما وصلنا إليه.
- ألستَ مَن قرر المكوث هنا وحد؟

لم يردّ عليه، فلا جواب لديه، فسأله يزن بعد أن سكت قليلاً ينتظر جوابه:

- ولماذا تمزّق ما تكتبه؟

نظر مالك إلى الطاولة، ثم قال:

- لن أمزّق شيئاً بعد اليوم، خذ الرسالة هذه وسلّمها إياها.

تأمّل لحية أخيه التي تذكّره بكآبته، هذه أول مرة يطلب تسليم رسالته إلى سارة، كان كلما كتب حرفاً يمزق الورقة، ثم يحرقها، قال يزن بحسرة:

- سأضعها في صندوق البريد، فأنا لا أتحدّث مع عمر إلا إذا كان الأمر مهمّاً، وأقولها لك بصدق "لا أرغب أن يجمعني به مكان".

اتسعت عينا مالك مما سمعه، فقد كانا نعم الصديقين، سأله بتوجّس:

- لِم؟
- لقد تغيّر عمّا كان، لم يعد ذاك المُحبِّ لعائلته، لقد قالها صراحة (إن البيت الكبير حقّه وحده)، أخبرني بأن مجد قد أغرته أموال ألمانيا، ولن يعود هو وزوجته ووالدتها، ومالك...

سكتَ قليلاً، أطرق رأسه أرضاً، ثم تنهّد وأكمل من دون أن يرفع رأسه:

- ومالك... ليس معترفاً به من أهل البيت، وأنا...

سكتَ مرّة ثانية، لكن ليس خجلاً هذه المرّة، وإنما ارتسم الألم على وجهه، ثم أكمل وهو يشكو خذلان ابن عمه لأخيه:

- قال لي: "أما أنتَ، فقد رأيتك تعيش مرتاح البال في منزل والدتك، ولا عائلة لك تخشى ضياعها، فأنتَ مازلتَ أعزبَ. لقد تحدّث كثيراً، لكنني لم أسمعه، فقد استدرتُ وعدتُ أدراجي، أشكو لأمي ضعفي أمامه وخذلانه إياي.

تنهد مالك مبتلعاً غصّة الألم، فهو أكثر الناس معرفةً بأنانية عمر، ثم جلس على الكرسي قبالته، وقال:

- عمر كوالده، باع وطنه للغريب، وها هو ابنه يبيع أهل بيته.

فغر فاهُ يزنٌ مما تفوّه به مالك، فصاح ينهره:

- ما الذي تقوله يا أخي؟ نحن نتشاجر... نتجادل... نعم، نفعل ذلك، لكن لا نتهم أحدنا بالخيانة.
- هل تعتقد أن من يبيع الوطن يكون ظاهراً، عمر باعه في كل صمت، في كل تصفيق، وكل تسويغ لهم، ومن يخن أهل بيته فليس صعباً عليه خيانة وطنه، ولا تنس أنه أوّل من تبرّأ من وطنه حين احتاجه في وجعه.

صمتَ مفكراً في كلام أخيه، لكنه لم ينسَ دموع عمر حين اتهموه بالخيانة بسبب والده، ومع ذلك يجده الآن قد ارتدى وجهاً لا يعرفه.

حمل الرسالة ووضعها في جيبه، ثم خرج الاثنان من الكوخ، نظر يزن إلى السهل الممتد أمام الكوخ الذي ارتصفت عليه خيام بيضاء، تأمّل الناس بصمت، أطفال يتراكضون، شباب مجتمعون حول نار صغيرة، نساء يغسلن الثياب يتضاحكن فيما بينهن، قال يزن وهو يرتدي معطفه:

- كم صار البرد قاسياً هذه الأيّام!

لم يردّ مالك عليه، بل حمل سيجارته بين أصبعيه وأشعلها وهو يتأمّل شعب الخيام.

رفع يزن رأسه نحو السماء التي تكدّست بالغيوم الرمادية وكأنها تُنذر بالمطر، فقال:

- سأرجع إلى المدينة قبل أن تمطر.
- كما تشاء، لكن لا تنسَ الرسالة.

ربتَ يزن على كتف أخيه الأكبر وقال مطمئناً:

- سأعطيها إلى صديق عمر، وهو بدوره سيقدّمها له، هذا أفضل من البريد.

ثم مضى نحو الطريق الموحل، توقّف لحظة عند حافة السهل، التفتَ خلفه، فرأى أخاه ما يزال واقفاً مكانه، رفع يزن يده مودعاً، ثم مضى نحو الطريق المؤدي إلى المدينة.

أما مالك فقد عاد إلى الداخل، أغلق الباب خلفه، رمى السيجارة أرضاً، دهسها بقدمه، أسند ظهره إلى الباب وكأنه يُسند آخر ما تبقى منه، نظر إلى الطاولة، الكرسي الفارغ، إلى صقيع غرفته، ثم همس:

- كلّ الطرق تؤدي إلى الخسارة... حتى طريق الغفران.

عاد البيت الكبير أفضل مما كان، لقد استطاع عمر ترميمه بسرعة كبيرة، لكن ما لم يفهمه عمر أن الجدران قد عادت، لكن اختفت ضحكات أطفاله الذين كبروا وهم يتراكضون حول شجرة التين.

والمفارقة العجيبة أن الطفل الوحيد الذي جاء إلى الدار لم يُولد فيها أصلاً، لكن أتى ليكمل طفولة من سبقوه.

كان يوسف الصغير يركض وحده حول شجرة التين –عارية الأوراق_ لم يكن يعرف لعبة الشيطان ليلعبها، بل يهتف لثورة نشأ في وسطها.

أما عمر فجلس صامتاً، بيده هاتفه المحمول يتابع آخر الأخبار، وصبا جواره تتابع بعينيها ضحكات طفلهما، حين انتبه إلى صمتها، وضع الهاتف جانباً، عقد يديه حول ركبتيه وقال:

- أخيراً... انتهت الحرب إلى الأبد، تحرر الوطن، وارتفعت الأعلام في الساحات.

ابتسمت ابتسامة باهتة، ثم استدارت إليه بوجهها وقالت بهدوء:

- الأعلام لا تعني شيئاً، ما لم نطهّر القلوب.

دُهش من كلامها، فسألها:

- ماذا تقصدين؟
- أعني بأنّ التحرر لا يعني رفع الأعلام فقط، بل أن نزيل الأقنعة التي مازلنا نختبئ خلفها.

مسح وجهه بكفّ يديه، ثم قال بصوتٍ منخفض محاولاً تغيير اتجاه الحديث:

- دعينا من السياسة الآن وأخبريني "هل خرجت سارة اليوم"؟

تنهدت صبا وأجابته:

- لا، مازالت في الأسفل، تجلس صامتة وكأن عالمها انتهى عند تلك اللحظة.
- مضى عام كامل على ذاك الموقف.
- لكنها مازالت تعيشه كلّ ليلة.

أطرقَ عمر برأسه، ثم قال:

- لو أنها تتحدّث، تخرج ما في صدرها فلربما ارتاحت.
- بعض الوجع يا عمر لا يُروى، لأن الكلام عنه يُعيد الألم ألف مرّة.

وفي القبو كانت سارة تجلس على الأرض، ظهرها للجدار البارد، تحدّق في العبارات المنقوشة على الجدار فوق السرير.

وقفت، ثم اقتربت، جلست على السرير تلتمس الحروف المكتوبة بقهر طفلٍ صغير، ثم همست بألم:

- لِم قتلته يا مالك؟ لو تركته يعيش، لكنّا الآن عائلة سعيدة.

سقطت دمعة على كفّها المرتجف، لم تهتم لها، وإنما تابعت بصوتٍ مكسور:

– مضى عام كامل، وما استطعتُ نسيان الأمر، كنتَ قادراً على محبّته بدل قتله، الحرب انتهت منذ عام، لكن الوجع لم ينته بعد.

ثم صرخت بوجع:

– الوطن تحررَ... لكنّك أبيتَ التحرر من عقدة الشيطان التي تلازمك.

خبّأت وجهها في يديها، وانهارت من البكاء.

جلس مالك أمام المائدة الخشبية الصغيرة، يحدّق في الطبق البارد أمامه، تناولَ لقمتين على عجل، ثم ترك الملعقة كمن فقد الرغبة في كل شيء، الطعام لا يُشبع جوعاً عمره اثنا عشر عاماً _جوع التشرّد والذنب والخوف_.

مسح فمه بطرف كفّه وقام، اقتربَ من طاولته، جلسَ وفتح الدفتر، أخذ القلم، ثم بدأ يكتب:

سارة...

لا أعرف من أين أبدأ، فكل البدايات في حياتي ملوّثة بالخطيئة. حين جئتُ إلى هذا العالم لم يكن في الأمر معجزة، بل لعنة لم تكفّر عنها الأيام.

قالوا لي: إنني ولِدتُ من حبٍّ محرّم، لكنّهم لم يسمّوه حبّاً، بل زلّة جلبت الخزي للعائلة... ومنذ تلك اللحظة وأنا أكفّر عن ذنبٍ لم أرتكبه.

أبي أنجبني خلسة، كأنه سرقني من رحم القدر، ثم تركني لأحمل وزر وجودي، شعرتُ حين رأيته أوّل مرّة بنفور اختبأ خلف الرحمة وكأنني مرآة تعكس له خطيئته القديمة.

لم يكن أبي شيطاناً حين أحب، لكنّه صار ذلك حين أنكر ما أحب، وأنا... صرتُ مسخاً حين حاولتُ أن أكون بشراً يشبهه.

كبرتُ يا سارة على هامش الحياة، أبحث عن علّة لبقائي، وأقنع بأنّ في قلبي خيراً لم يُكتشف بعد، لكن الحرب جاءت وأخذت معها ما تبقى من ذاك الطفل الذي كنته.

الوطن عاد من الحرب يا سارة، لكنه مازال يرتجف حين ينادي أبناءه.

أحياناً أخرج إلى الساحة فأرى في عيون أطفال الخيام والذين كبروا قبل أوانهم وجه المدينة الحقيقي، لا مباني، لا شوارع، بل وجوه صغيرة تحمل تعب الكبار، وابتسامات خجولة ولدتْ من العناد، لا من الفرح.

الحرب جعلتنا نبكي قسراً، نضحك بحذر، نحلم بخوف، ونحب بصمت، حتى الحب صار معركة نخسرها أكثر مما نربح.

وحين انتهت الحرب بدأ العقاب الحقيقي... أن نحيا... أن نتذكّر.

اليوم... وأنا أكتب إليكِ أشعر كأني أكتب على جسدي، كل حرفٍ هو ندبة، وكلُّ سطرٍ جرحٌ لم يلتئم.
لا أطلب غفرانك يا سارة، فالغفران لا يليق بي، لكنني أريدك أن تعرفي الحقيقة، وهي أنني لم أختر الخطيئة، بل ولدتُ منها.
وإن كان لي من عزاء، فهو أنّكِ كنتِ النور الوحيد الذي صدّق أنّ فيَّ شيئاً من الإنسان.

مالك

انتهى من كتابة خطيئته الأولى التي تشكّلَ منها، أسند رأسه إلى الجدار، أغمض عينيه وترك القلم ينزلق من بين أصابعه.

الرسالة لم تكن اعترافاً قدرَ ما كانت توبة متأخرة لرجلٍ لم يذنب.

كان الطريق إلى الكوخ موحلاً يبتلع خطوات يزن كلّما تقدّم أكثر نحو أطراف السهل.

انتشرت الخيام البيضاء كأكفان كبيرة نصبتها المدينة لتخفي تحتها وجعها، وكأن الهواء الرمادي يلهو معها ويعبث بها.

وقبل وصوله إلى الكوخ لمح صبيّة سمراء، واقفة أمام خيمتها، تنشر الغسيل على حبل مائل، رُبِط من طرفيه بشجرتي كينا.

كانت جميلة، ساحرة، أو هكذا رآها، جذبته بشعرها البني الطويل، اقترب منها ليحدد لون عينيها، وحين وصل إلى حبل الغسيل، تأملهما فلمح ليل المدينة الحالك يطلّ من عينيها، قال بصوتٍ هادئ:

- مساء الخير.

رفعت ديمة رأسها، نظرت إليه بعينين مرهقتين، وردّت:

- مساء النور.

تأمّلها لحظة، بينما تابعت نشر الغسيل، نظر إلى يديها اللتين احمرّتا من شدّة البرد، لو أن ديسمبر يرحم الضعفاء ويخفف من زمهريره قليلاً، قال بخجل:

- كنتُ أراكِ من بعيد، لكن لم أجرؤ على الاقتراب منكِ يوماً، والتحدّث إليك.

ابتسمت ابتسامة باهتة، وقالت دون أن ترفع نظرها إليه:

- كل من مرّ من هنا يكتفي بالنظر من بعيد، وكأننا ظلال لا نُرى.

تقدّم خطوة، أمسك حبل الغسيل بيده وكأنه يستند عليه، ثم قال:

- أنا يزن.

رفعت ديمة نظرها إليه، وكأنها تريد معرفة هذا الشاب الذي تجرّأ على الاقتراب منها، ومع ذلك ردّت بصوت متين:

- وأنا ديمة...

سكتَ يزن لحظة، ثم ابتسم بخجل وقال:

- الاسم يليق بكِ... فيه شيء من دفء الأرض، وشيء من شمس الوطن.
- ربّما، لكن الدفء لا يقترب من شعب الخيام.

صمتت قليلاً، نظرت إلى قطعة القماش التي تعلّقها على الحبل، وأكملت:

- لقد مضى على إقامتي هنا زمنٌ أطول من أن يُحسب بالسنوات، كلّ يوم هو حربٍ صغيرة، وكل قطعة قماش مبتلّة تحمل معها ذكرياتٍ جاهدتُ لنسيانها.

تلفّت يزن حوله، وكأنه يرى الخيام أول مرة، ثم قال بعد أن تأمّل الحرب في عينيها:

- لم أرَ أحداً ينظر إلى الخيمة بهذا العمق، وكأنك تحفظين فيها أسرار المدينة كلّها.

نظرت ديمة خلفها إلى المدينة القابعة أسفلها وأجابت:

- الأسرار ليست جميعها هنا، نحن نعيش تحتها فقط، نراقبها، نحاول ألا تنهار فوقنا.

ثم نظرت إليه وأردفت بألم:

- الشتاء لنا عذاب، من يعش تحت سقف مهترئ يعرف وحده معنى كل هبّة رياح، كل نقطة مطر، كل شعاع شمس خافت.

جلس يزن على صخرة قديمة، وبينما ظلّت عيناه تتابع تحرّكاتها، سألها بتوجّس:

- ومنذ متى أنتِ هنا؟
- منذ بداية الحرب، الخيمة صارت منزلي، والبرد رفيقي، والريح جداراً أستند إليه.

ظلّ صامتاً إذ شعر بثقل كلماتها تضغط على صدره، فلم يستطع إضافة شيء، بينما أكملت هي:

- سرقت الحرب أصوات ضحكاتنا، حتى ضحكات أطفالٍ لم يتعلّموا بعد كيفية نطق اسمهم.

نظر إلى جراحها طويلاً، ثم قال:

- لم أرَ في حياتي من يصف الألم بهذا العمق.

لم تجبه، وإنما أكملت ما تفعله، فسألها:

- وأين والدك؟

خفضت رأسها وكأنها تستذكر ما حلّ به، ثم أجابته:

- قتلته الحرب.

تألّم لألمها، ثم قال بصوتٍ خفيض:

- البقاء لله.

ثم نهض يستأذنها في الذهاب قائلاً:

- عليّ الذهاب الآن... أخي ينتظرني في كوخه.

سألته بابتسامة:

- الرجل ذو اللحية الطويلة؟

نظر إليها مستفهماً، فأوضحت له ما قالته:

- كل الأطفال هنا ينادونه كذلك، طالما أنتَ أخوه... فشذِّب لحيته، يبدو أنها استطالت بغفلة منه، وواجب عليك الاعتناء به.

أومأ لها برأسه واتجه إلى الكوخ.

طرق يزن الباب طرقتين، كان مالك ما يزال نائماً، أيقظه الطرق على بابه، فتح عينيه ببطء، نظر إلى ظلمة الكوخ التي تشبه ظلام قلبه الحالك، عاد الطرق ثانيةً، نهض فاجتاحه دوار عنيف، أمسك برأسه بكلتا يديه حتّى هدأ قليلاً، ثم جرّ خطواته فوق الأرض الخشبية المتهالكة، اقترب من الباب وقال بصوتٍ مبحوح من أثر النوم:

- من بالباب؟

صدح صوت أخيه من خلف الباب الخشبي، أدار القفل وفتحه، دخل يزن وألقى السلام، ثم جلس على السرير، بينما مالك بدأ يُعدّ القهوة لهما، قال يزن بعد أن تأمّل فوضوية المكان:

- لا يُترك رجل لوحدته طويلاً، فالعزلة تقتات على الروح.

ابتسم مالك بسخرية، ثم قال:

- لم تقلتني الوحدة وإنّما علمتني العيش دون مساعدة أحد.

- يا أخي حتى الكوخ اختنق من وحدتك.

ثم اقترب من أخيه، حمل فنجانين ووضعهما على الطاولة، جلس على الكرسي وقال:

- لا يليق بك هذا الخراب.
- الخراب سكنني منذ زمن.

لم يعلّق يزن على كلامه، بل بدأ تنظيف الطاولة من مخلّفات الطعام، ثم رتّب الكوخ إلى أن انتهى مالك من إعداد القهوة، رمى يزن بقايا الطعام العفن، وقال:

- كأنك لا تأكل جيّداً.
- لم أعد أجد في الطعام حياة.

تنهد وسكتَ قليلاً، حمل فنجان القهوة الساخن واحتسى منه القليل، ثم قال وكأنّه تذكّر شيئاً:

- إني أحمل إليكَ أخباراً كثيرة عن المدينة.
- المدينة؟

قالها بشرود، ثم سأله:

- أما زالت تحرق أبناءها؟
- تغيّر وجهها بعد التحرير، لكنْ ليس تماماً كما حلمنا.
- كيف؟

- إنها هادئة من الخارج، لكن في داخلها ضجيجاً لا يُحتمل، الناس يحاولون التظاهر بأن الحرب قد انتهت، لكنّهم يشعرون أنها لم تغادر ذكرياتهم بعد.

ابتسم مالك بألم، أشعل سيجارته، نفث الدخان من رئتيه، وقال:

- الحرب لم تنتهِ، هي غيّرت شكلها فحسب.

ثم سأله بعد أن ارتشف القليل من القهوة:

- والناس؟ هل عادوا إلى حياتهم؟
- بعضهم يُحاول، وبعضهم ما زالَ عالقاً في الخنادق، سمعتُ اليوم أن المنطقة الغربية بدأت بالتحرّك.

رفع مالك رأسه ببطء، ثم سأله بنبرة متوتّرة:

- تتحرّك؟ بأي معنى؟
- يريدون صنع ثورة مضادة، لا يعجبهم الحكم الجديد، يقولون إنهم لا يعترفون بما فرضه المنتصرون، بعضهم بدأ يعبث بأمن المدينة، يحرّضون على العصيان والإضراب، وكأننا لم نكتفِ من الدم بعد.

ثم صاح بألم:

- أصلاً بعض الوجوه التي استقبلت الثوار بعض النصر هي نفسها التي صفّقت للجلّاد بالأمس.

ثمّ تنهد وأكمل:

- أنانيتهم ستدمّر المدينة أكثر مما دُمِّرت.

ظل مالك صامتاً يستمع إلى شكوى أخيه، في حين أكمل يزن ثرثرته، وبعد أن أفرغ ما في جعبته من آلام، سأل أخاه فجأة:

- لطالما كنتَ جزءاً من النصر، فلمَ تنعزل عنها؟
- لأن النصر الحقيقي لم يتحقق بعد.

أدرك يزن مقصد كلامه، ومن غيرها سارة تشعره بالنصر، ثم قال بنبرة هادئة:

- ألا تفكّر بالعودة معي إلى البيت؟ البيت صغير لكنه سيعجبك.
- لا بيت لي إلا هذا الكوخ، كل الأبواب التي تركتها خلفي لم تُفتح بعد، حتى سارة... لم تعد تنتظرني.
- اكتب لها شيئاً جديداً.
- أخشى ألا تقرأها.
- لقد سلّمتُ رسالتك إلى عمر.

نظر إليه واتسعت عيناه، ثم صرخ في وجهه:

- إلى عمر! ولماذا عمر؟
- ألم أخبرك أنني سأسلّمها إلى صديق لي يعرف عمر، أنا لا أحب الحديث معه، ثم إنه الأقرب إليها وسيسلّمها إليه بنفسه.
- نسيتُ الأمر، أخشى أن يمزّقها.
- ولم تقل مثل هذا الكلام؟
- لأن الرسائل لا تضيع في الطريق، وإنما حين تصل إلى الأيدي الخاطئة.

أطفأ السيجارة في صحنها المخصص، ارتشف من فنجان قهوته، ثم قال وكأن الجرح ما يزال مفتوحاً:

- عمر لم يغفر لي بسبب صبا، ولن يسمح لسارة أن تغفر أيضاً.
- أتظنّ أن سارة ستنساك؟
- لن تنسى، لكن أعتقد أنها لم تعد تؤمن أن الغفران ممكن.

نهض يزن من مكانه، اقترب من الباب وقال وهو ينظر إلى أخيه بعينين متعبتين:

- عد معي إلى المدينة، فهناك سيجمعكما لقاء قريب.

نظر إليه مطوّلاً، ثم ردّ بنبرة مكسورة:

- إن لم تغفر... فلن أعود.

لم يرد عليه يزن، بل أدار مقبض الباب، فاستوقفه مالك، استدار إليه، سحب الرسالة من الطاولة، اقترب من أخيه وسلّمه إياها وكأنّه يسلّمه قلبه، وضعها يزن في جيبه، فتح الباب وخرج متجهاً إلى المدينة، بينما أغلق مالك الباب خلفه، استند إليه طويلاً، كأنه يحمل على كتفيه تعب المدينة كلّها.

أما يزن فعاد إلى البيت بعد أن سلّم الرسالة إلى رفيقه، دخل إلى صالة البيت فوجد والدته ممسكة بالهاتف تتحدّث بصوتٍ خافتٍ نبرته أشبه بالرجاء:

- أرسل لنا القليل من المال يا بني... الدواء لم يعد يكفيني إلا أيّاماً، وأخوك بالكاد يستطيع تأمين قوت يومنا.

ردّ عليها مجد ضجراً من إلحاحها المستمر:

- والله يا أمي لا أملك المزيد من المال، بالكاد أقدر على تأمين ما يكفينا، سامحيني...

قطعت اتصالها به، بعد أن أنهت المكالمة، وضعت الهاتف جوارها، اقترب منها يزن وقال بنبرة عتاب لكنها ممزوجة بالحنان:

- ألم أقل لكِ يا أمي لا تطلبي منه شيئاً، هو من يجب عليه السؤال عنكِ، لا أن تُهاني بطلبٍ منه.

نظرت إليه بحيرة وقالت:

- وما العيب إن طلبتُ من ابني إرسال بعض المال.

جلس جوارها، أمسك يدها ولثمها، ثم قال بهدوء:

- العيب فيه وليس فيكِ، العيب أن يتذكّرنا إن احتاج إلينا فحسب.

سحبت يدها من يده، ثم قالت محاولة تغيير الحديث:

- ما رأيك أن نذهب إلى البيت الكبير، ربّما نجد الراحة هناك، وفي إمكاننا اقتسام مصروف البيت مع عمر.

ردّ بسرعة:

- لا يا أمي، لا داعي لذلك.

تعجبت من سرعة ردّه، فسألته:

- ولمَ؟ لا أحد هناك بغريب عنّا.

ابتلع آهاته بصمت، كيف يخبرها أن عمر استولى على البيت القديم، ورفض أن يقاسمه إياه أحد، أجابها باقتضاب وهو يشيح بنظره عنها:

- لا أشعر بالراحة هناك، هذا كلّ ما في الأمر.
- إذن وماذا عن مالك؟ أما زال رافضاً العودة؟

تنهد، ثم أجاب وهو يتجه إلى التلفاز، ضغط على زر التشغيل:

- لا يريد العودة قبل أن تغفر سارة.

صمتت ولم تجب، في حين ظهر المذيع يقرأ نشرة الأخبار بنبرة خالية من المشاعر:

(عُثر ظهر اليوم على مقبرة جماعية جديدة وسط المدينة، تحت التراب ضاعت أسماؤهم، ملامحهم مصدومة وكأنّ من قتلهم كان عليه حمايتهم).

أكمل المذيع الخبر، وبعد ذلك أنهاه بقوله:

(يبدو أنّ في باطن الوطن وطناً آخر، أكثر صدقاً، أكثر إخلاصاً، وأكثر ألماً).

تأمّل الشاشة قليلاً حتى انتهت نشرة الأخبار، دخل إلى غرفته وارتمى على سريره بثيابه المغبّرة، حدّق في السقف وجملة المذيع تطنّ في رأسه (في باطن الأرض وطن آخر).

وحين حاول إغماض عينيه تسلل وجه ديمة إلى ذهنه، وكأنّ الخيمة التي التقيا عندها لم تُغلق بعد، ورائحة التراب المبلل ما تزال عالقةً في ثيابه، لقد تركت فيه أثراً يشبه وجع الوطن الجميل.

رآها مختلفة عن النساء اللواتي يعرفهن، نساء مدينته المكسورات، وتشبه بنات القرى اللواتي اعتدن الانتظار.

في صوتها ثبات، في عينيها خوفٌ يخفي شيئاً أكبر من الحزن، شعر بأنه يعرفها من زمن، ربما قبل الحرب بكثير.

أدار رأسه على الوسادة، استعاد ملامحها التائهة وهي تنشر الغسيل وتتأمل الساحات الخضراء الممتدة حتى المدينة.

أراد أن يسألها أكثر، لكن شيئاً في عينيها منعه، شيئاً أخبره أن الأسئلة ربّما تجرّ وجعاً لن يحتمله.

أغمض عينيه وهو لا يعرف هل سيراها غداً، كل ما يعرفه الآن أن اسمها قد علق في رأسه، وصورتها لن تبارح ذهنه أبداً.

قرأ عمر الرسالة بجمودٍ تام، كأن الكلمات لا تخصّه، وهي فعلاً كذلك، قرأها وكأنها خبر عن شخصٍ غريب لا يعرفه، لم يتغيّر في ملامحه شيء، سوى ومضة عابرة في عينيه انطفأت سريعاً.

طوى الورقة بعناية، وضعها في جيبه، دخل البيت، ثم إلى الصالة، ألقى السلام على من فيها، ألقى نظرة خاطفة على سارة، وخرج إلى غرفته.

أخرج مفتاحاً صغيراً من جيبه، فتح درج الكومدينة بجانب سريره، ثم رفع صندوقاً خشبياً أنيقاً، وضع الرسالة بداخله إلى جانب الرسالة الأولى، أغلق الصندوق بإحكام، ثم أغلق الدرج بالمفتاح، وعاد إليهما.

كانت صبا تقنع سارة بالعودة إلى مالك، فهي غاضبة منها ومن عنادها، فلا أحد يعرف مالك كما عرفته صبا.

سمعها تصرخ بسارة:

- مالك ظُلم كثيراً في حياته، اغفري له، لطالما عاش وهو لا يرغب بإيذاء أحد، حتى إنه عاش عمره دون أن يردّ الأذى عنه.

نظرت سارة إليها بعينين دامعتين وقالت:

- أتعتقدين بأن الأمر يسير على فؤادي الجريح، مالك هو أوّل كتفٍ أسندتُ رأسي عليه هرباً من مشهد بيتنا المدمر وتحته جثث عائلتي، كان أول من بكيتُ في حضرته.

قاطعها عمر بعد أن اقترب منهما، جلس جوار المدفأة:

- لا أريد التدخل بحياتك، لكن... لا تكوني ساذجة يا سارة.

نظرت إليه دهِشة من ردّ فعله، وسألته:

- ماذا تعني؟
- أعني أن من يَقتل لا يُبرّأ بالكلام، مالك قَتل وليدك، وهذه حقيقة لا يغيّرها تعاطف صبا معه.

شهقت صبا، وصرخت فيه تعاتبه على ما تفوّه به:

- لا تقل مثل هذا الكلام، ثم أنه ندم على ما فعله.

ارجع ظهره إلى الخلف، وعقد ذراعيه ثم قال:

- أقول ما رأيته وسمعته، الموت لا يحتمل يا صبا، ولا أحد سينسى حقيقة قتله لابنه.
- لكن لا أحد يعرف بما في القلوب.

صرخ في وجهها:

- هكذا أنتِ دائماً ما زلتِ تلتمسين له الأعذار رغم ما فعله.

أشاحت وجهها عنه بغضب من كلامه، أما هو فرمق سارة بنظرة لا تخطئها عين، لكنها سريعة، انكسرت حين التفتت صبا نحوه.

كان الكوخ غارقاً في صمتٍ ثقيل، لا يُسمع فيه سوى صفير الرياح وهي تضرب النوافذ الخشبية.

على السرير كان مالك يتقلّب كمن يطارد ظلّه، غمر العرق وجهه، وعيناه المغمضتان تتقلّصان كأنه يشاهد مشهد من أفلام الرعب.

رأى في حلمه المشهد ذاته الذي يطارده منذ أشهر، صوت صراخ حاد، طفل يرتجف بين يديه، دموع مختلطة بالتراب، ويداه... تخنقان جسداً بلا حولٍ.

صرخة اخترقت سكون الليل...

- بابا... لا.

فتح عينيه فجأة، كمن يحاول الهرب مما رآه، جلس وهو يلهث، ارتشف القليل من كأس الماء المتوضّع على الكومدينة جواره، مسح وجهه بيده المرتجفة، ثم همس بصوتٍ مبحوح:

- لم أقصد... لم أقصد.

حملَ علبة التبغ، سحب منها سيجارة، أشعلها وبدأ ينفث دخانها ببطء.

وبعد قرابة نصف ساعة وهو يسترجع كابوسه لحظة بلحظة، وقف أخيراً واتجه إلى الموقد، أشعل بعض النار فيه ثم جلس على الكرسي أمام الطاولة، وعلى ضوء مشعلٍ صغير بدأ يكتب:

سارة...
هذه الليلة كانت أطول من أن تُحتمل.
كلّما أغمضتُ عينيّ، رأيتُ ابني، وسمعتُ صوته يختنق بين يدي.
لم أكن أباً قاتلاً كما يُقال، كنتُ أباً بائساً ظنّ الخلاص بيده، فارتكب الخطيئة وهو يبحث عن الرحمة.
منذ تلكَ اللحظة لم أنم كما ينام البشر، ولم أستيقظ كما يستيقظون، لأنني عالقٌ بين كابوس لا ينتهي، وواقع لا يرحم.

تنهد، وفجأة جاءت صورة أمّه في ذهنه، ابتسم بألم وأكمل:

تذكّرتُ أمي يا سارة، كانت أول من علمتني بأن الخوف لا ينقذ أحداً.

كنتُ في الخامسة من عمري حين فقدتُ دفء صدرها، لا... لأنها ماتت حينها، بل لأنها كانت تخشى عليّ أكثر من اللازم.

كنتُ غريب الملامح، مختلفاً عن باقي الأطفال، كنتُ مسخاً كما قالوا... نصف وجهٍ لا يشبه النصف الآخر، كانت تخشى من سخريتهم مني، أن يرموني بالحجارة مثلاً.

لذلك حبستني في غرفة صغيرة، لكنها لم تكن مظلمة، وكانت تردد على مسمعي دوماً بأن الناس لا يحبون المختلفين، لذلك عليّ الصبر.

كنتُ أسمع ضحكات الأطفال في الخارج، أضع أذني على الجدار، كأنني أحاول العيش بأصواتهم.

أما أمي... فتعود كل مساء من عملها، تحكي لي حكايات عن البحر والطيور، وأنا لم أرَ بحراً، ولا سمعتُ طائراً إلا منها.

وفي يوم حزين كحال قلبي الدائم قررتْ الخروج بي إلى النور، ألبستني أجمل الثياب، ابتاعت لي على الطريق كل ما رغبتُ به، كانت تجيب على كل أسئلتي بصدرٍ رحب، وأنا سعيدٌ بصحبتها أكثر من الدنيا وما فيها.

لكن فجأة... انتهى كل شيء، حين وقفتُ وإياها أمام البيت الكبير، حينها أمسكتُ أصابعها بقوّة كأنني أتشبّثُ بالحياة.

لكنها توقّفت على العتبة الغريبة عني، نظرت نحوي نظرة غريبة لم أفهمها، وقالت لي:

- أنتَ ملاك يا مالك... لا تدع أحدهم يشوّه جمال روحك.

لو عرفتْ أن الجميع سيتّفق على تشويه قلبي لدعت خالقها أن يبقيها ريثما يشتدّ عودي، لكنها تركتْ يدي ومضت.

لم أصرخ، كنتُ أظنّها ستعود بعد لحظة... لكنها لم تعد.

قضيتُ خمسةً وعشرين عاماً أكره تلك اللحظة، ظننتُ أنها أفلتتني لأنها خجلتْ بي، حتى علمتُ بعدها أنها كانت تودّع الحياة، المرض أخذها بعد أن نظرت خلفها وتأكّدت أنني لم أبكِ.

أمي يا سارة كانت أكثر من أم، كانت ظلّي الوحيد، وحين رحلتْ صرتُ بلا ظل.

كبرتُ على هامش العالم، أخفي وجهي خلف لحية كثيفة ووشاح لا يفارقني، لأنّ الناس لا يغفرون ما لا يحبونه.

حين رأيتكِ أوّل مرّة تذكرتُ وجهها، وحنانها، وصبرها عليّ، لكنّي خفتُ يا سارة أن أكرر الحكاية ذاتها، أن أمسك يداً أحبّها ثم أفلتها كما فعلتْ هي، ربّما لذلك قتْلته.

أتساءل... لماذا أكتب؟

لأن الكتابة يا سارة هي الشيء الوحيد الذي لا يهرب مني، أكتب لأتذكّر أنني مازلتُ إنساناً، ولأقول بأن الندم ليس خلاصاً، بل سجنٌ مفتوح الأبواب.

سارة...

اغسلي الشوارع بالدمِ إن شئتِ، لكن من سيغسل القلوب من ذكرياتنا؟

من سيمسح عن الذاكرة وجوه من غابوا؟

في الحرب لا منتصر يا سارة، كلهم يخسر شيئاً من روحه، حتّى الذين عادوا أحياءً... عادوا ميّتين من الداخل.

أحياناً أفكّر...

ربّما ولدتُ لأحمل خطايا غيري، لأكون شاهداً على خرابٍ لم أصنعه.

لكنّ الله وحده يعلم كم بكيت، وكم توسلتُ أن أُعاقب بدلاً من ابني.

أكتب لكِ الآن والليل يبتلع كل شيء، صوت المطر على سقف الكوخ يشبه أنين طفلٍ بعيد.

أشعلُ شمعة وأراها تذوب ببطء، كأنها تشمت بألمي ثم تقول لي: هذا أنت تضيء قليلاً لتنطفئ بالنهاية.

لو كان بيدي، لعدتُ إلى ذلك اليوم وعانقته بدلاً من قتله، لصرختُ حتى تسمعني أمي في قبرها وأخبرتها ألا تخاف عليّ فقد صرتُ

أقوى من نظراتهم، لكن الماضي لا يُعاد يا سارة، وما نكسره بأيدينا لا يجبره الوقت.

اغفري إن استطعتِ، وإن لم تقدري فاقرئي ألمي بصمت، ودعيني أتعذّب كما يليق بمن عرف الحب متأخّراً والخسارة مبكّراً.

مالك

وضع القلم جانباً، طوى الرسالة، خبّأ رأسه في يديه، وبكى خطاياه.

أدرك الآن أنه كبر من مجموعة خطايا أكبر من مقاسه.

كانت ولاء تجلس على أريكة في الغرفة الصغيرة ببطنها المنتفخ قليلاً، نظرت إلى مجد الذي يعمل على حاسوبها، وقالت بنبرة أقرب إلى الرجاء:

- لا يمكننا البقاء هنا للأبد، ألم تملّ الغربة؟ ألم تشعر بالحنين لبيتنا؟ لأصوات شارعنا؟ لاجتماع العائلة الصباحي أمام البحرة وصوت يصدح في الأجواء وأمامنا فناجين القهوة؟ أريد العودة إلى هناك قبل ولادة طفلنا هنا... في الغربة.

لم يهتم لكلامها، ولم ينظر إليها، بل أكملَ عمله، ثم صاح بغضب بعد فترةٍ قليلة:

- المدينة تغيّرت كثيراً، كل شيء تهدّم، كل باب فيها فقد مفتاحه، لا أريد العودة لأشهد خرابها، لأشهد هزيمة وطني وكسر كلّ جميل فيها.

مدّت قدميها على طاولة خشبية، ومسّدت بطنها، ثم قالت بهدوء:

- الوطن لم يُهزم، نحن الذي هزمناه حين انقسمنا، وطالبنا بأن لكلٍّ منّا حدود تخصّه وحده، حين عاد أهل الثورة إلى مكانهم وجدوا بأنّ المنافقين قد ورثوا مقاعد البطولة، وأعلوا أصواتهم على أطلال من ضحّوا في سبيل الوطن.

ارتعشت شفتاها، ثم أكملت بصوتٍ حزين، في حين ترك عمله على الحاسوب، ونظر إلى حزن عينيها:

- سنصبح ثلاثة يا مجد، لا يمكننا انتظار العالم ليرجع إلينا، علينا خلق حياة جميلة لنا.

تنهّد بقهر، ثم قال:

- المدينة التي تتوقين إليها لم تعد ملكنا، بل أصبحت سوقاً تبيع كل شيء حتى المبادئ.

ثم صرخ فيها:

- فبالله عليكِ كيف تريدين مني العودة إلى هناك؟

ردّت عليه بغضب مماثل لغضبه:

- لن استسلم، ولن أتركك أسير الماضي، الوطن قد يكون مدمّراً، لكننا نحن من نصنع المستقبل، إن لم تعد أنتَ ولا غيرك، فمن سيبني ما دُمّر، المدينة تنتظرنا لنبنيها من جديد.
- ربّما تكونين على حق، لكن لا أضمن لقلبي أن يتحمّل العودة إلى مكان أصبح أشباحه أكثر من أحيائه.

ثم هبّ واقفاً، تمشّى في الغرفة الضيّقة وأكمل:

- حين تدخلين الحارة ستتهافت عليكِ ذكرياتٍ عن جثث أقاربك، روائح الدم والبارود، لن تنسي يا ولاء ما حصل ولو مرّ ألف عام.

تركها ودخل غرفته، بينما هي تفكّر بالعودة إلى ديارٍ سكنتها وما زالت إلى الآن تسكن قلبها.

وقف يزن أمام المخيّم، حبّات المطر تنهمر برفقٍ على الخيام المتهالكة، فشكّل بِركاً صغيرة على الأرض الموحلة. لم يهتم لزخّات المطر، ما يهمّه انتظارها.

وأخيراً خرجت فاتنته السمراء من خيمتها، كانت ترتدي معطفاً ثقيلاً، نظرت حولها كأنّها تبحث عن شيء ما، توقفت عندما لمحته واقفاً بثبات، يداه في جيبي معطفه.

تقدّم بخطواته حتّى صار أمامها، مدّ يده مصافحاً، مدّت يدها بشيء من الخجل، سألها:

- كيف حالك اليوم؟

ابتسمت وقالت:

- لا نستطيع أن نقول إلا الحمد لله.

ثم تأملت الدخان الخارج من فمه من شدّة البرد، قالت وهي تفرك يديها تستدعي الدفء:

- كل يوم أسأل نفسي كيف سيكون حال ساكني الخيام، هذه الحرب لم تخلّف إلا الدمار، كل شيء هنا يذكّرنا بما فقدناه.

نظرَ إليها، وتمنى لو يمحو ذكرياتها عن الحرب، فقال:

- لك الحق، كل رأس يحمل ذكرى بيت هُدّم، شارع فرغ من أهله، وناس هجرت مدنها بلا عودة.
- المنفى يبدأ بخيمة صغيرة، وينتهي بذاكرة لا تعرف عنوان العودة، كلّ يوم هنا يعلّمنا أن الحرب لم تأخذ منّا الأماكن فقط، بل هويّتنا وماضينا.

أومأ برأسه وقال:

- صحيح... علينا أن نكون واقعيين، كل من فقد بيته لم يعد بعد، وكل من نجا من الحرب لم يجد طريقه إلى السلام بسهولة.

- المدينة التي تركناها، البيوت المهدّمة، كل شيء يذكّرنا أننا لم نهرب من الخراب فقط، بل من الخيانة والخذلان، من هاجر لم يترك وراءه مجرّد جدران، بل قصص لمن فقدهم.

وكأنها تذكّره بحاله يوم أن كان مع ذاك الجيش، يوم أن رفع سلاحه في وجه أخيه معتقداً أنه ينقذ البلاد من شرّهم، وهو لا يعلم أنّه مع الشرّ الأكبر، شعرَ في هذه اللحظة أنها تتحدّث عنه، فقال بعد صمتٍ دامَ لحظاتٍ قليلة:

- الوضع صعب يا ديمة، يجب علينا أن نخطط لخطواتنا القادمة، الحرب انتهت فلا يجب أن تنهينا، نحن من استطعنا البقاء أحياء وسط ما تهدّم فيجب ألا نيئس من حياتنا الجديدة، اتركي الأمور للمستقبل فسيكون كفيلاً بها.

ابتسمت بسخرية من كلامه، وقالت:

- نحن من شهدنا كيف هُدّمت المدينة على رؤوسنا، كيف اختفى الناس، إما في المعتقلات، وإما في مقابر جماعية لا تسعهم، نحن من سمعنا حكايات أحبّائنا وكيف انتهت حياتهم، فكيفَ نترك الأمور للمستقبل، هذا إن بقي لنا مستقبل.

سكتَ ولم يجبها، الآن شعرَ حقّاً أنها تعاتبه على أنه كان مع الطرف الآخر، ظلّ ينظر إليها، يحاول فهمها ويفشل في كلّ مرّة، بينما هي شعرت بأنّ عينيه تخترق قلبها المتعب، فأشاحت وجهها في اتجاه المدينة الغارقة في غبار الماضي.

وبينا هي شاردة تتأمل وجه المدينة الغائب، سمعتْ نداءً باسمها اخترق السكون.

- ديمة.

تجمّدت ملامحها وهلة، التفتت إلى وجه أمها الغاضب، ثم إلى يزن الذي فهم الموقف تماماً، أخفض نظره، وقال بهدوء:

- ادخلي... يبدو أن أمك قلقة عليكِ.
- هي تقلق من كل شيء.

ابتسم يزن بخفّة، ثمّ قال:

- ربما لأنك وحيدتها، وربما لأنها فقدت كل شيء ولم يبقَ لها سواكِ.
- هل ستذهب إلى المدينة؟ أم ستعرّج على أخيك؟
- لقد كنتُ عنده قبل المجيء إليكِ.
- إذن احذر الطريق.

أومأ برأسه وانسحبَ بخطواتٍ هادئة نحو الطريق المؤدّي إلى المدينة، ظلّت نظراتها تلاحقه حتّى تلاشى بين الضباب، قبل أن تصحو فجأة على صوتٍ غاضب خلفها:

- ديمة! ألم تسمعي؟ ادخلي فوراً.

استدارت واتجهت إلى خيمتها، دخلت بهدوء، فرأت وجه والدتها الغاضب، نظراتها حادة كالسيف، سألتها بحدّة:

- إلى من كنتِ واقفة؟

خفضت ديمة رأسها، ثم قال بصوتٍ مرتجف:

- مع يزن... كان يودّعني بعد أن فرغ من زيارة أخيه.

ارتفع حاجبا أمها، ثم قالت بغيظ:

- تودّعينه؟ في المطر؟ وأمام الخيام؟ أهذا وقت الوقوف مع الغرباء؟

رفعت ديمة رأسها ببطء، وقالت بخجل فطري:

- ليس غريباً يا أمي، إنه رجل محترم، لم يقل ما يسوءني، ولم ألمح في نظراته ما يخيفني.

قاطعتها أمها بلهجة حادة ممتزجة بين الوجع والحذر:

- الرجل المحترم لا يترك امرأة تقف معه أمام الناس، الحياة يا ديمة علّمتنا أن نغلق أبوابنا بإحكام، ألا نترك قلوبنا مكشوفة لكلّ عابر سبيل.

تنهدت ديمة، ثم جاهدت نفسها أن تبقى متماسكة، فقالت:

- أنا لا أبحث عن عابر سبيل، إنما عن حياة أخرى خارج هذا المخيّم، عن حياة تُنسِيني ما أعيشه هنا.

جلست والدتها على السجادة البالية، وقالت:

- لم يبق لنا في هذه الحياة يا ديمة إلا أن نحفظ ما بقي من كرامتنا، حتى وإن كنا نعيش في خيمة.

صمتت ديمة، فخوف أمها عليها لا تستطيع مقابلته بعصيان، أومأت لها، ثم شردت في نظرات عينيه التوّاقة إلى غرامه الصعب.

ولكن هل ستغرم به وتنسى أنه مجرّد أداة انتقام لدماء والدها، نعم... لقد تذكّرته، وتذكّرت أنه من كان يقف على الحاجز يوم قتل والدها.

ظلّت أياماً تتذكّر أين لمحته، وأين رأت وجهه، لقد كان جلّاد المدينة في نظرها سنوات عديدة.

جلست سارة وحيدة على السرير الخشبي القديم في القبو، ضمّت ركبتيها إلى صدرها وكأنّها تحاول حماية نفسها، خبّأت رأسها بين ذراعيها، كسا الصمت المكان إلا من قوارض تقرض بعض الخشب، تأففت من رائحة الرطوبة، وغرقت في ذكرياتها مع مالك قلبها، تذكرت صوته، غضبه، حنانه، ابتسامته، حتى صمت حضوره الذي كان يملأ المكان أكثر من أي كلام، رفعت رأسها ببطء نحو الحائط، ثم استدارت إلى الحائط الذي كانت تستند إليه، أمسكت قلماً كان جوارها، وبدأت تكتب كما كان يفعل:

((المدينة تغيّرت... لكنّ الأزقة ما زالت تنعن وجوه الراحلين.))

شدّت على قلمها، مسحت دمعتها، تجوّلت نظراتها في الزوايا المظلمة من الغرفة، كأنها تحاول استحضار كل ذكريات ماضيه، ثم أكملت:

((حارتك تشبه الذاكرة، ضيّقة الممرات، مزدحمة بالحنين، كل خطوة فيها تذكّرك بمن فقدت، كل صوت، كل ضحكة، كل دمعة سُكبت على أرواح شهداء لا نعرفهم.))

أغلقت عينيها لحظة، وتخيّلت مالكاً واقفاً أمام الباب، ابتسم لها... فابتسمت، خشيت أن تفتح عينيها فيختفي، لكنها فعلت، وما عاد له وجود إلا في ذهنها، هزّت رأسها ببطء، هل يتذكّرها الآن؟ أم نسيها وما عاد يهتم لأمرها؟

ارتجفت أصابعها من البرد، لكنها واصلت الكتابة:

((حتى حجارة مدينتنا تعرف تاريخنا، تعرف كيف كنّا غرباء فيها، كيف أن لنا أشباحاً تتجوّل في الأزقّة تبحث مثلنا عن طعام نسدّ به جوعنا، تبحث مثلنا عن أصواتٍ كانت تسمعنا.))

نهضت ومشت في الغرفة، تذكّرت حين قصّ عليها وحدته، وتمنّت لو شاركته إياها، وقفت أمام جدارٍ آخر تأكّلَ من الرطوبة، ثم كتبت عليه:

((كل شيء هنا يشبه الحنين، كل ما في القبو يحاول أن يعلّمني أن حبي لك لن يموت، لكنه تركني وحيدة، أبحث عن آثارك بين الخراب والذكريات.

مالك... حتى لو افترقنا، حتى لو ابتعدت المسافات بيننا، فستظلّ كل زاوية، كل حجرٍ، كل دمار في المدينة شاهداً على أننا كنا فيها وبدأت قصة غرامنا فيها.))

أغلقت عينيها، واستندت إلى الجدار البارد، وكأن القبو نفسه يشاركها شعورها بالغياب.

وبعد دقائق ظنّتها ساعات، صعدت الدرج ببطء، خطواتها متثاقلة، وكأن هناك قيوداً وضعت بقدميها كي تعيق خروجها.

وعند باب الخروج وجدت عمر واقفاً أمام الباب، قال بحزمٍ معاتباً إياها لإصرارها على المكوث في الأسفل:

- يجب عليكِ نزع رداء الحزن، لن تتغيّر الحياة حولك إن بقيت سجينة ذكرياته.

استندت إلى الجدار، ثم أجابت بنبرة هادئة مثقلة بالوجع:

- لا أستطيع، فالحزن ساكن بين أضلعي، وفي زوايا قلبي، في كل ذكرى معه، وفي كل نفسٍ أتنفسه.

صمتَ حائراً في كلامها، أما هي فأكملت بعد أن رفعت عينيها إليه:

- حين صمتت المدافع أول مرة ظننتُ أنني سأعيش كنساء هذه المدينة، لكن الألم كان أفظع بكثير.
- أعلم أن ألمك لا يحتمل، لكن عليكِ أن تعيشي، انتقمي منه يا سارة، حين يجدك سعيدة في حياتك سيُقهر كثيراً.

دُهشت من كلامه غير المترابط، واللامنطقي، فقالت:

- أو تظنّ نفسَك تعرف مالكاً أكثر مني؟ أنت لم تعاشره يا عمر كما عاشرته أنا... مالك حين يراني سعيداً سيُسعد لسعادتي، إنه ليس أنانياً كما تظن.

أبعدته بيدها، ومشت إلى باحة الدار، فصاح من خلفها:

- وقتله لابنك؟

تبّاً له... كلّما حاولت النسيان، يذكّرها بالمأساة الكبرى.

استدارت إليه، تأمّلت عينيه المتوهّجتين بنورٍ لا ترغبه، ثم قالت بهدوء:

- لأنكم لم ترحموه، فقتله لكي لا يكرّر مأساته.

وغادرته دون أن تتيح له المجال ليكمل ذبح مالك أمامها.

لا تحب أن يذكره أحدهم بسوء أمامها، تريد أن تحافظ على جماليته أمام الجميع.

أما عمر فجلسَ جوار ابنه الذي يتأرجح في أرجوحة رُبطت بأغصان شجرة التين، أراد أن ينسى ما قالته، فاستدار إلى طفله وسأله عن المدرسة، سُرّ صغيره باهتمام والده، فردّ عليه بحماسة:

- لقد جاء طلاب جدد إلى مدرستنا، من مدنٍ بعيدة، ومن مدن قريبة أيضاً.

ابتسم عمر لصغيره، ثم قال بحنان:

- هؤلاء الصغار مثلك، عادوا بعد أن شعروا بالأمان، بعضهم يا يوسف فقد عائلته، وبعضهم فقد بيته.

صرخ الصغير بحماس:

- هل سنكون أصدقاء؟ ونتشارك اللعب معاً؟

هزّ عمر رأسه بتأكيد، وكأن حماسة طفله انتقلت إليه، وأجابه:

– ربما سيكون لك منهم أصدقاء، ومنهم مَن لن تستطيع فهمه بسهولة.

أومأ الصغير، وظل يتأرجح بسعادة، وبعدها أمره والده أن يذهب لسارة، فربما تشعر بالحزن الآن.

انصاع الصغير لأمر والده وركض إلى غرفتها، دفع الباب برفق، صعد إلى سريرها، عانقها دون أن يعرف سبب دموعها، أما هي فبادلته العناق.

لقد ذكّرها بمالك حين كان صغيراً ويعانق كل من يبكي أمامه، همست بصوتٍ خافت:

– وجودك يا صغيري يُشعرني أنني لستُ وحيدة، كما لو أنك... بديل لذاك الذي فقدته.

ظلّ معها يستمع لحكايتها عن مالك والمدينة، عن عائلتها والحرب، حتى نام في حضنها وكأنه أمان من كل شرور.

أمسك مالك هويّته الجديدة، قلّبها بين يديه، ثم رماها على الطاولة أمامه، إنها لا تعجبه، لطالما رغب بها كي يهرب من ظلم وطنه، لكنه الآن لا يريدها أبداً، لقد منحوه إيّاها بعد أن دُمّرت المدينة، فما يفعل بهوية لوطنٍ مدمّر.

نظر من النافذة إلى حبّات المطر المتساقطة على الخيام، كلهم مختبئون في خيامهم، وهو يتأمل الجميع من كوخه كما اعتاد.

جلس على الكرسي، أمسك القلم بأصابعه المرتجفة، فتح الدفتر، مزّق ورقة منه، وبدأ يكتب:

حارتي القديمة يا سارة... لم تكن أكثر من شارع ضيّق بين جدران متعبة، حملتْ في طيّاتها خطوات من رحلوا قبل أن أعرفهم، وضحكات أطفال لم أسمعها إلا مرّة أو مرّتين في حياتي.

المرّة الأولى حين دخلتُ الحارة مع أمي، كنتُ طفلاً حينها، كل شيء حولي بدا كبيراً ضخماً، كنتُ أراقب الوجوه، أحاول فهم الألوان، الأصوات، الروائح... لكنني لم أستطع استيعاب الحكايات الخفيّة بين الجدران.

المرّة الثانية كانت بعد تحرري من سجني، مع بداية الحرب.

الحارات العتيقة يا سارة تشيخ لكنها لا تنسى شيئاً...لا تنسى ضحكات من رحلوا، لا تنسى الأسرار التي حملتها جدرانها خلال سنوات.

كم من جدارٍ فيها حفظ حكايات أهلها، من همسات الليل إلى صرخاتٍ مغطاة بالغبار، كل ما فيها كان محفوظاً، وكل شيء كان حيّاً.

إلا أنا... لم أشارك أحدهم سرّي.

رأيتُ الحارة مرّة أخرى بعد الخراب يا سارة، كانت بيوتها مهدّمة، نوافذها محطّمة، أبوابها متساقطة، المفترض أن أحزن عليها لأنها

حارتي، لكنها ليست كذلك، ليست لي، ولم أملك فيها ذكرى تجعلني أضيف لها ياء الملكية.

حاولتُ أن أتذكّر أي شيء، لكن من أين تأتي الذكريات وأنا أعيش تحتها؟ لا أصوات ولا روائح، حتى هواؤها خانق لي كأنه لا يعرفني.

لم أقدر يوماً أن أفتح معكِ حديثاً عنها، لأنني لم أشعر أنني جزء من تاريخها، رغم أنني أحد أبنائها العابرين.

كل شرفة، كل زاوية، كل حجر، كل باب يحكي حكاية لم أعشها، أناساً لم أستطع الاقتراب منهم.

حتى الضحكات التي سمعتها لم تكن لي، لم أشاركهم أفراحهم، ولم يعرفوني وأنا في باطن الأرض أعيش.

حتى الآن يا سارة وأنا أكتبُ لكِ هذه الرسالة أشعر أن الحارة القديمة تحتفظ بكل شيء إلا أنا، كنتُ فيها بين الركام والذكريات، لكنني غريب عنها، غريبٌ عن نفسي، عن كل شيء ظننتُ أنني أعرفه.

سارة...

أكتب لكِ وأنا أشعر بالغربة، ليس عنك فحسب، بل عن نفسي أيضاً، كل شيء حولي يصرخ بخسارة، وأنا عابر أطلال بين الماضي والحاضر، أحاول الإمساك بما يمكن اعتباره ملكي، لكن لا شيء يبقى لي.

أتذكّر صمت الليالي الأولى... بعد أن تحررت... حين مشيتُ بين أزقتها الضيقة، شاهدت الأبواب المحاطة بالغبار، سمعتُ صدى الأطفال الذين رحلوا قبل أن أعرفهم، كم تمنيتُ أن أترك أثراً، أن أشاركهم سعادتهم وجراحهم، أن أكون جزءً من حارتهم، لكنهم أقصوني عنها، وبعدها أتوني ليخبروني أنني ابنها وعليّ حق رعايتها.

كم مرّة نظرتُ إليها بعد الخراب؟ مرّتين... ثلاث مرّات... وفي كلّ مرّة أبحث عن شيء يمكنني أن أتبنّاه، شيء يشُعرني أنه يخصّني، لكن كل مرّة أتأكّد بأنني غريب.

وها أنا أكتب لكِ هذه الخطيئة وأشعر بأن الحارة القديمة لم تعد تعنيني في شيء.

وحدك يا سارة... الحاضرة في كل شيء، الغائبة في كل لحظة.

كم تمنيتُ لو أحدّثكِ عنها، عن أزقتها الضيقة، عن ضحكات من سكنوها، لكن كيف ذلك، وسرّي في باطن الأرض مدفون.

ومع ذلك... ها أنتِ دخلتِها، شاهدتِ ركامها، جلستِ قرب البحرة، وتحت شجرة التين، وكأنكِ تعيشين حياتي التي ما عشتها.

وهكذا... سأظل أكتب لكِ عن هذا الخراب، عن الحرب، عن الماضي الذي لم أستطع الإمساك به، عن قلبٍ وَجَدَ في قلبك شيئاً لم يجده في قلبٍ آخر.

حين تقرئين رسائلي هذه ستفهمين أن ما ضاع مني لم يكن مجرّد جدران، بل حياة كاملة لم أعشها، وحنان لم أعرفه، وحبّ أضعته بغبائي.

مالك

ترك الرسالة، انساب القلم من بين أصابعه، حمل سيجارته وأشعل فيها النار، نفث دخانها ببطء، نظر إلى الرسالة، كل حرفٍ كتبه كان محاولة للاتصال بالعالم الذي فقده، بالعالم الذي لم يتمكّن من امتلاكه.

انتصب واقفاً، سحب معطفه من المشجب، ارتداه، اعتمر قبعته الصوفية، وخرج من الكوخ، تمشّى حتى وصل إلى أطراف السهل، حيث الخيام تمتد على طول السهل الأخضر، نظر خلفه فلاحَ وجه المدينة الغارقة في الظلام.

هل ستكون هناك حياة جميلة بعد كلّ هذا الخراب؟

كان يزن يقف داخل معمل المعلّبات، وسط ضوضاء الآلات، الصخب يملأ المكان، لكن عقله كان بعيداً، ينتقل بين ذكرياته وآلامه، تفكيره مشغول بديمة، الفتاة التي أسرت قلبه بفلسفتها العميقة، قرر التقدم لخطبتها، يريد سبر أغوارها ومعرفة ما يشغل بالها.

أنهى عمله وغادر سريعاً إلى حارته القديمة يريد التحدّث إلى صبا، يشكو لها ألماً قد حلّ بفؤاده، لكنه لم يعلم أنه سيقابل عمر بأوّل الحارة.

ارتدّ يزن إلى الخلف خطوة، شعر بأن عمر في انتظاره، لكنه دائم الجلوس مع شباب الحاجز.

كان منهمكاً بالحديث مع رجال الثورة، كأنه شاركهم معاركهم، ولم يكن يوماً ضدّهم، ويكنّ لهم العداء.

انتبه عمر إلى وقفة يزن في ناصية الشارع، تجهّم وجهه، وقف منتصباً، تقدّم من ابن عمه، مدّ يده مصافحاً، صافحه يزن ثم سحب يده، سأله بعد أن نقّل نظره بين شباب الحارة وعمر:

- كيف تمكّنتَ من تبديل وجهك على هذا النحو؟

ابتسم عمر وقال:

- التغيير جزء من الحياة يا يزن، اعتقدت في البداية أن ذاك الطرف هو الرابح، لكنّي أخطأتُ في ظنّي، والآن جميعنا في حاجة إلى الوطن لا إلى تدميره.

سكتَ قليلاً ليرى تأثير كلامه على وجه الآخر، ثم قال حين لم يتبيّن ملامح ابن عمّه الباردة:

- الحقيقة أننا جميعنا مررنا بتجربة قاسية، ولكن بعد كل هذا الدم لا يمكننا مواصلة الحياة في كذبة كبيرة، والاستمرار في مساندة من دمّر الوطن وأهله.

تأمّله يزن بشيء من الصدمة، ثم حاول أن يتماسك أمامه قائلاً:

- كيف يمكنك تسويغ كل شيء؟ كيف يمكنك الانتقال من طرفٍ كنتَ تدعمه إلى طرفٍ كنتَ تقاتله؟

تنهّد عمر وقال:

- كنتُ أعتقد كغيري أن ذاك يملك القوّة، وأننا يجب أن نستمرّ معه لنستقر، كنتُ أظنّ أنني أعيش في واقعٍ لا يمكن تغييره، ولكن بعدما رأيتُ بأم عيني ما حدث، ومن القاتل، شعرتُ بأنه حان الوقت للوقوف ضده.

شعر يزن بمرارة كلام عمر، لكنه لا يستطيع إنكار الحقيقة التي بدت واضحة أمامه، فقال:

- وماذا عن دماء الشهداء؟ هل تعتقد أن الثورة انتصرت لأن ذاك النظام كان ضعيفاً فحسب؟ أم لأنهم قاوموه بكلّ قوّتهم؟

ردّ عليه بشيء من السخرية:

- أنتَ لا تختلف عني يا يزن، كنتَ معي في الصف ذاته، وحملنا معاً السلاح ذاته، وارتدينا ملابسنا معاً، فلا تأخذك الحميّة كثيراً يا ابن عمّي.

ثم ربتَ على كتفه، وأكمل:

- لقد تغيّر كل شيء، كنا نعيش في ظلمٍ وقهر، والآن صار في إمكاننا رؤية النور، فلا أنتَ تلغي وجودي، ولا أنا بقادر على إلغاء وجودك، ثم إن الوطن يتّسع لكلينا.

أومأ يزن برأسه، وفي داخله صراع كبير بين أنه لا يختلف عن عمر كثيراً، وبينَ أن عمر يستطيع التلوّن كما يحلو له.

بعد لحظاتٍ من الصمت، تأمّل فيها يزن حارته المهدّمة، ثمّ قال:

- ربّما لم نفز جميعاً في هذه الحرب، لكن الوطن انتصر في النهاية، الثورة لم تكن مجرّد معركة في سبيل السلطة، بل في سبيل العودة إلى إنسانيتنا.
- نعم، ربما، لكن الحرب الحقيقية بدأت الآن، المدينة تحتاجنا لنبنيها من جديد.

ثم مدّ يزن يده إلى جيبه، سحب الرسالة، وسلّمها إلى عمر، طالباً منه تسليمها إلى سارة.

وذهب إلى صديقته الجديدة، لم ينس أمر ذهابه إلى صبا، لكنه لم يشأ أن يذهب إلى هناك لئلّا يتبعه عمر، فهو لا يريد إطالة الحديث معه.

سار عبر السهل الممتد عبر الأراضي الشاسعة، الذي امتلأ برائحة التراب المبلّل واختلط برائحة العشب الندي، التي أعادت إليه ذكرياته القديمة.

توجّه إلى المخيم، نظر إلى بساطة الناس ها هنا، وكأنّ الحرب طحنتهم ثم أجبرتهم على الابتسامة.

بحث بعينيه عن فتاته الجميلة، فرآها تجلس قبالة كوخ أخيه، تستند بظهرها إلى شجرة الزيتون العملاقة، كأنّها تحتمي بها من الرياح الغاضبة.

اقترب منها بخطوات بطيئة، ثم وقف قبالتها، سألها بتوجّس:

- أيمكنني الجلوس معك؟

رفعت رأسها إلى الأعلى، ابتسمت بتردد، ثم قالت:

- بالطبع، تفضّل.

جلس جوارها على حجرٍ صغير، ثم تابع بنظره الأراضي الشاسعة الممتدة إلى ما لانهاية، وكأنها تمثّل له الضياع الذي يشعر به، فقال:

- لم أعرف أنني سأجد ذاتي هنا، في هذا المكان.

لم تنظر إليه، بل ظلّت عيناها تسبحان في غيوم السماء، ثم قالت بعد صمتٍ قصير:

- كلّنا تائهون هنا لأننا فقدنا شيئاً ما، لم يكن هذا طريقنا الذي رغبنا به، الحرب سرقت الكثير منا، لكننا مازلنا نقاوم.

أعاد آخر كلمة بصوتٍ خافت:

- نقاوم؟
- أجل... المقاومة ليست بالسلاح فقط، بل المبادئ، أولئك الذين خانوا الوطن سحقوا مبادئهم في صدورهم قبل تصويب فوهات بنادقهم إلى صدر الوطن.

- أنتِ محقّة، من حاربناه... لم يهرب... بل اختبأ خلف شعارات زائفة بلون النصر.

فاجأته حين نظرت إليه، وسألته بحدّة:

- اصدقني القول؟ في أي طرف كنتَ؟

تأمّلها برهة، ثم سألها رافضاً الإجابة عن سؤالها:

- هل تعتقدين أن الثورة انتصرت فعلاً؟

نظرت إلى عمق عينيه تحاول سبر أغواره وقد تمنّع عن الإجابة، ثم أجابت بابتسامة تحمل الألم:

- النصر الحقيقي لا يُقاس بالسلطة، بل بالقدرة على العيش بكرامة، نحن مازلنا في بداية الطريق يا يزن.

عاد بنظره إلى الأراضي الشاسعة، ثم قال بعد تفكير عميق:

- إننا لم نخرج من هذه الحرب لنعيش في أوهام، هل سنتمكّن من بناء المدينة؟ هناك من يشكك في ذلك وهم كثيرون.

قطع كلامهما صوتٌ بعيد جاء من المخيّم _ينادي ديمة_ كان صوت والدتها، يتخلله الخوف والقلق، وقفت ديمة، صاحت وهي تلوّح بيدها:

- أنا هنا يا أمي، هل تحتاجين شيئاً؟

تقدّمت والدتها، وما إن وجدت هذا الغريب يجاور ابنتها حتى تملّكها الغضب، فهي لم تخشَ الحرب، ولم يَعنِها أمر إقامتها في خيمة، حتى زوجها استودعته

عند خالقها، لكن خوفها على ابنتها تجاوز كل ذلك، قالت بقلقٍ لم تستطع إخفاءه:

- ديمة، أريد التحدّث إليكِ.

اقتربت أكثر تتفحّص وجه ابنتها، سألتها:

- أأنتِ بخير؟

ابتسمت صغيرتها، ثم أومأت برأسها، نظرت والدتها إلى يزن، وقالت بلهجة صارمة:

- اصدقني القول يا بني، ما نيّتك اتجاه ابنتي؟

كانت كلماتها ثقيلة على قلب يزن، كأنها تحمّله مسؤولية المدينة كلها ولا ابنتها فحسب، شعر بالحيرة والارتباك قليلاً، ثم أجاب:

- أنا لا أريد منها شيئاً سوى أن تشاركني ما بقي من حياتي، لذلك سأحضر عائلتي لطلب يدها منك.

نظرت إليه، كأنها تحاول قراءة ما في قلبه، ثم قالت بجدّية:

- أأنتَ جاد فيما تقول؟ هل ستكون قادراً على حمايتها؟ أنا لا أملك غيرها، لذلك أخشى عليها من الأذى.

أومأ برأسه متفهماً، ثم قال:

- أنا جادّ فيما قلت، أعدك بأنني سأكون أمانها وحمايتها.

سكتت تحلّل وعده في خلدها، ثم قالت بإصرار:

- إنه ليس بالأمر السهل، ولكن إن كنتَ صادقاً فيما تقول، فلا بأس.

ابتسم لها، ثم غادرها إلى كوخ أخيه بعد أن وعدها بإحضار عائلته لطلب يدها.

وما إن رأته دخل كوخ أخيه، حتى صرخت فيها والدتها معنّفة:

- ألم أطلب منك عدم التحدّث إليه؟ لِم لا تستمعين إلي؟ ألأني كبرتُ وأصبحتُ عجوزاً صرتِ لا تبالين بأمري.
- ليس الأمر كما تظنين يا أمي.
- أنت تعرفينه، أليس كذلك؟

ثم استندت بيدها إلى جذع شجرة الزيتون، كأنّها تذكّرت شيئاً خطيراً، فسألت ابنتها بتوجّس:

- أليس هو نفسه من عرفناه على حاجزٍ أدمى قلوب الناس خلال فتراتٍ أليمة.
- كلّنا عرفناه سابقاً، لكنه لا يعرف وجوهنا، ولا يعرف أننا كنا هناك. ومن السهل التعرّف إليه الآن، ومع ذلك أجد الحرب قد أبدلته بآخر، فقد حني ظهره، إني أراه هادئاً على الدوام.
- احذريه يا ديمة، فالوجوه الهادئة قد تخفي ذئاباً خلفها.

عادت ديمة بظهرها إلى شجرة الزيتون كأنها تستمدّ منها القوّة، عادت بذاكرتها إلى البعيد، ابتسامات والدها، صوت ضحكاته الرنانة، وجهه الذي غدا شاحباً بعد أن امتلأت الدروب برائحة البارود، انسكبت دمعتها حين تذكّرتْ تلك الليلة، حين عاد من عمله وفُتّش عند الحاجز، لم يعجبهم ما كُتب في هويّته،

فقرروا نفيه من الأرض، وظلّ مكانه محتضناً الأسفلت حتى وجدوا جثّته في اليوم التالي، لم يقدر أحد على التعرّف إليه، أنكر جميع أفراد عائلته معرفتهم به، لئلّا يلقوا مصيره نفسه.

أصابع الاتهام حينها أشارت إلى قاتل واحد، كان يقف على الحاجز.

نظرت إلى كوخ مالك، مسحت دمعتها التي خانتها، واستمعت إلى أمها التي لا تزال تثرثر في الماضي:

- أخشى عليكِ من الأذى، أشعر أنكِ تحاولين الانتقام منه بسبب ما حلّ بوالدك، لا تفعلي ذلك أرجوكِ، فأنا لا أملك من الدنيا إلا أنتِ.

أما ديمة، فكانت هناك معركة بداخلها، بين شعور الحب الذي احتلّ فؤادها، وبين رغبتها في الانتقام، والذكريات تأتيها مشتتة، هدوء يزن مع ضحكات والدها، ثم كلام والدتها الدائم بأن والدها قُتل يوم أن كان يزن على الحاجز.

نظرت إلى والدتها الجالسة جوارها، وضعت رأسها على كتفها، تبسّمت الأم لصغيرتها، ثم قالت بحنان ظاهر:

- قد تحبينه، لا أنكر نظرة عينيك الصادقة، لكن الحب هنا محكوم عليه بالموت إن لم يُدعم بالثقة.

ارتعشت شفتاها، وسألت نفسها بصوتٍ لا يسمعه غيرها:

- هل يجب الانتقام منه؟ أم أمدّ يدّ التسامح لأن قلبي بات يهواه؟

ثم نفضت أفكارها جانباً حين جاءت صورة والدها المدمَاة، قالت بهمسٍ بالكاد وصل إلى أذن والدتها:

- لا... يجب ألّا أحبّه أبداً.

اعتدلت والدتها في جلستها، وقالت وهي تحتض وجه ابنتها بكلتا يديها:

- لا تدخلي قلبك في معارك لا تعرفين نهايتها، لا تختاري حبّاً قد يجّرك إلى جحيم.

تركتها والدتها مع نفسها لتمنحها مساحة من التفكير، تأمّلت ديمة أطفال المخيّم وهم يتراكضون، نظرت إلى النسوة وهنّ يغسلن الصحون والثياب، همست لنفسها:

- ربما كان الحب ممكناً، لكنه الآن في مهده ويجب عليّ وأده.

نفضت عنها هذا الكلام، ثم قالت بإصرارٍ وتحدٍّ:

- لا... يجب أن انتقم، فروح والدي لن تهدأ قبل رؤيتي لغريمه في نفس المكان ينزف دماً.

لقد اهتمّ يزن بمالك هذه المرّة، واستمع إلى كلام ديمة السابق، فحلق لحية أخيه رغماً عنه، ووضّب له الكوخ، وغسل ثيابه، ثمّ أعدّ بعض الطعام، وما إن شرعا في تناول الطعام، حتى سأله مالك:

- أمازال الأعداء يحاولون دخول المدينة؟

رد عليه يزن، بعد أن مضغ الطعام في فمه:

- لقد قصفوا جميع مواقعنا العسكرية القديمة، ربما ليضمنوا ألا يستخدمها الثوار الجدد لمقاتلتهم، أما الخونة فلم يتوبوا من التاريخ، إنهم بدّلوا زيّهم واختبؤوا خلف شعاراتهم الكاذبة.
- لقد قلتَ سابقاً إنه بعد التحرير صارت الخيانة تُباع مغلّفة بالوطنية، هل تعتقد حقاً أن الناس يفرّقون بين من قاتلَ في سبيل الوطن، ومن باع مبادئه باسم الوطن.

أومأ يزن برأسه، ثم قال:

- نعم، بعضهم يبتسم لك اليوم، ويخفي السكين خلف ظهره، وهذا ما جعل انتصارنا مريراً.
- ربّما كان الانتصار مجرّد وهم كبير.

ابتسم يزن بسخرية مريرة، ثم قال:

- النصر ليس شعارات تُكتب على الجدران فحسب، بل أن نظل ندافع عن المدينة حتى آخر رمق، يجب علينا حمايتها من أهلها أولاً.
- أنتَ دائماً ترى الحقيقة لأنك فيها.
- وما يمنعك أن تكون فيها؟

نظر إليه بضعف، ثم قال وهو ينهض من مكانه:

- لا، لا أحبّذ الحديث عن هذا الأمر، ولا تناقشني به مرة أخرى.

أومأ برأسه، ثم ودّعه وغادر بعد أن سلّمه الرسالة.

أما مالك، فجلس خلف طاولته، يقتله الشوق إلى معذّبة قلبه، تذكّر البيت الكبير الذي اتسع للجميع وضاق به، وها قد مرّت السنوات وظلّ متغيّباً عنه، حتى زوجته سكنته، إلا هو، خطّ اسمها بخطٍّ يرتجف، وسرعان ما انسابت الكلمات وحدها وكأنها جرح سالَ على دفتره.

سارة...

دخلتُ البيت الكبير وحدي، دون أن يرافقني أحد، بلا أمي، فقد تركتني أمام البيت وهربت، تاركة فراغها يتسلل إلى قلبي، كل مَن حولي، أخواي وأقاربي حدّقوا بي، كانوا يراقبونني بصمت، كأنني كائن غريب جاء ليعتدي على ممتلكاتهم.

لم أكن أعلم كم غرفةً في البيت، ولا ما يحدث فوق رأسي، كل زاوية تحمل سرّاً لا أفهمه.

أخواي التوأم يلعبان لعبة الشيطان، كنتُ أجلس في الظل، أستمع إليهما، أسمع ضحكاتهما العالية، صراخهما المتقطّع، تخطيطهما المخادع، وأتمنى لو أنني أجرؤ على المشاركة، لم أعلم أن اللعبة كانت ضدي منذ البداية، إذ كانوا يختبئون خلف ضحكاتهم، وتركونني أراقبهم من بعيد، كأنني شبح في بيتي، غريبٌ عنهم، غريبٌ عن نفسي، غريبٌ عن كل ما ظننتُ أنني أملكه.

حين ماتت جدتي، شعرتُ بالفراغ وهلة، لم أشعر بحضنها، لم أجد من يواسي وحدتي، فلم أتمكن من لمس شيء من دفء هذا

البيت، أما حين مات جدي فلم يسأل عني أحد، ولم أسأل عن أحد.

كل جدار في البيت حمل حكاية لم أسمعها، وكل حجرٍ نادى باسم لا أعرفه، وأنا... وأنا تُركتُ في الزاوية، مستمعاً، غائباً، محروماً.

البيت رغم أنه كان مفتوحاً للكل، أغلق أبوابه في وجهي، وكأنني لستُ ابن هذا المكان، حُرمتُ من حياة كان من المفترض أن أعيشها.

هذه يا سارة خطيئتي الرابعة، حرماني من البيت، من شعوري أن أكون جزءاً من شيء أحبّه، من لحظاتٍ كان يُفترض أن أضحك فيها، أن ألهو، أكون أنا، لكنني بقيتُ في الظل، استمع، أراقب، فتعلّمتُ القسوة قبل أن أعرف معنى اللعب.

كنتُ أسمعهم يتحدّثون عن قصصهم، مغامراتهم الصغيرة، خططهم التي لا أعرفها، كنتُ أسمعهم يضحكون من أشياء لا أفهمها، أسمع صراخهم وأتمنى لو أشاركهم مرحهم، كل ضحكة مزّقتني قليلاً، كل كلمة ذكّرتني أنني وحيد هنا، لا أملك مكاناً بينهم.

في ذاك البيت الذي تقيمين فيه فقدتُ كل شيء، لم أجد حضناً، لم يقبّلني ولم يَقبلني أحد.

كأن هذا البيتِ يا سارة جعلني مراقباً، لا مشاركاً، غريباً عن عائلتي، عن كل ما أملك.

كنتُ أتساءل دوماً: لماذا أنا هنا؟ لِم أنا مختلف؟ ولماذا العالم لم يترك لي مكاناً؟

هذه يا سارة كانت خيانة عائلتي الكبرى: خيانة الزمن، البيت، خيانة من تركوني أعيش وحيداً بين جدران رطبة، لم أكن أعرف أن حياتي ستبدأ بهذه الطريقة القاسية، وأن كلّ حب، كل دفء، كل لحظة حنان، تأخرت عني.

كل لحظاتي في البيت كانت تذكّرني أنني خارج الدائرة، غريبٌ في وسطٍ مألوف.

أليسَ من أبسط حقوقي اللعب مع أخويّ والاندماج بهما؟ ومع ذلك أقصوني من حياتهم كأنني وباء عليهم.

كنتُ أشعر أن الجدران تخبرني كل ليلة أنني لستُ جزءً من هذا البيت، ولن أستطيع مشاركة حزني مع عائلتي بحريّة.

هذا البيت يا سارة كانت أبوابه مُشرّعة للجميع، لكنه أُغلق في وجهي دون أي أسباب تُذكر، لأنني خطيئة لم يتب عنها صاحبها فحسب.

مالك

لا تعرف لِم أخذتها خطواتها إلى الحيّ المهدّم، ذاك الحي الذي شهد مراحل طفولتها وصباها.

وقفت سارة أمام بيتها، مازالت حجارته راكعة على الأرض، لا شيء هنا يدلّ على الحياة، دارت بعينيها على بيوت الحي بأكمله الآيلة للسقوط والساقطة، وكأنّ حيّها رجلٌ شاخ وهو ينتظر عودة أولاده.

مرّت نسمات ديسمبر الباردة بخفّة على الأنقاض، فأزاحت الغبار برفق عن حجارة سوّدتها الحرائق.

لم يبق من بيتها سوى جدار مائل، ونافذة نصفها رماد، مدّت يدها تتحسس الجدار الذي كان يسندها فيما مضى.

جلست على حجرٍ كبيرٍ من حجارة بيتها، ربما هنا المطبخ، كل كسرة طوب شاهدة على ضحكة، على صوتٍ، على دمعة، وعلى حكاية لم تكتمل.

انهمرت دموعها بصمت أمام الركام وخلفها صدى أصواتٍ لم تعد موجودة. عادت إلى ذاكرتها اللحظة التي انهار فيها البيت على رؤوس قاطنيه، حينها ابتلع الركام صرخاتهم، ولم يستطع أحد منهم الركض لينجو، وحدها كانت الناجية في نظر الصحافة، الميّتة في نظر نفسها.

كانت أمها هنا _في المطبخ_ تُعدّ طعام الإفطار الذي لم تتناول منه لقمة، ووالدها في الصالة، يشاهد ما وصلت إليه المدينة من دمار، لا يعرف أنه سيكون خبراً دسماً فيما بعد تتناقله وسائل إعلام لا تبالي بآلام المدينة وجراحها.

همست بصوتٍ خافت:

- لو أنّ البيوت تعرف لغة الدمع لبكى هذا البيت حتى أغرقَ الحيّ بمن فيه.

أغمضت عينيها، فاندفعت الدموع من مقلتيها، رأت في خيالها أمّها وهي تصرخ باسمها تحت الركام، ووالدها يمدّ يده نحوها ثم يختفي خلف الغبار، وأخواتها الصغار يضحكن بصخبٍ وكأنهنّ أحياء.

تعلم بأن زيارتها لهم جاءت متأخرّة جداً، لكنها خشيت أن تحرس بقايا أرواحهم فتظلّ تطاردها إلى الأبد، ذكرياتهم كوابيس لا تنتهي، فجلوسها الآن بمثابة اعتذار متأخر عن نجاتها من دونهم.

سمعت صوتاً قادماً نحوها، يناديها بقلق، التفتت... فرأت عمر قادماً بخطوات أشبه بالركض، في عينيه قلق، وفي صوته غضب:

- سارة؟ ما جاء بكِ إلى هنا وحدك!؟

ثمّ صاح بها:

- أجننتِ؟

لم تجبه، نظرت إليه بعينين تائهتين، وكأنها طفلة ضلّت طريقها، اقترب منها أكثر، ثم قال بهدوء:

- المنطقة هنا غير آمنة، الألغام مازالت تحت الركام، انظري إلى الحي الغارق في خرابه، لم يعد إليه أحد من أبنائه.

سكتَ هنيهةً، ثم أكمل بألم:

– ألم تفكّري بنفسك؟ ألم يَكفك ما خسرتِه؟

وقفت، ثم اقتربت من ركام بيتها، قالت وهي تتأمل الحجارة كأنها تخاطبها، ولا تخاطبه.

– أتيتُ أرى ما تبقّى منهم، ربما ظلّت رائحتهم ها هنا، أو ربما سمعتُ صدى ضحكاتهم.

رفع صوته بقسوة لم تعتدها منه، لكنه أجبر نفسه أن يكون قاسياً لعلّها تستيقظ من أوهامها:

– أتظنين أنهم سيعودون إن وقفتِ فوق رمادهم؟ هذا المكان مات يا سارة.

قالها بألمٍ وهو يتأمل الحيّ بخرابه، ثم أردف:

– وسيموت كل من يحاول البقاء فيه.

ارتجفت شفتاها، ولم تعد تحتمل أكثر من ذلك، انتحبت بعمق، خبّأت وجهها في يديها، ثم خرج صوتها مكسوراً كالزجاج:

– أنا لم آتِ لأعيدهم، بل جئتُ أعتذر لأنني بقيت.

حدّقَ بها كثيراً، فكلماتها أثقل من كل شيء، ظلّ يحدّق بها تارةً، وبالركام تارةً أخرى، ودّ لو يضمّها إلى صدره فتنسى الحيّ بمن فيه، قال بصوتٍ هادئ:

– كل البيوت التي ضحكت في الزمن القديم صارت الآن نحيباً، لكننا مازلنا أحياء يا سارة، لذلك علينا أن ندعو لهم.

رفعت وجهها إليه، مسحت دموعها، ثم قالت بصوتٍ تائهٍ:

- أحياء؟ لا يا عمر... نحن فقط لم نُدفن بعد.

مسح وجهها بكلتا يديه، ثم قال لها:

- يكفي يا سارة، المكان لم يعد لهم... ولا لكِ.
- بل هو لهم... أصبح سكنهم، وأنا الغريبة عنهم.

مدّ يده ليسحبها، ويعود بها إلى البيت، لكنها تشبّثت في مكانها، كالجذور في أرضها، لم تتزحزح أبداً، قال بحزم:

- الناس يهربون من الموت، وأنتِ تعودين إليه، هل ظننتِ أن الوجع يُشفى بالبقاء ها هنا.
- ما عدتُ أهرب يا عمر... ممّ أهرب؟ من الحياة التي تركتني مقسومة إلى نصفين، نصف تحت الركام، ونصف سرقه مالك وولى بعيداً.

ثم جالت بعينيها على البيوت المهدّمة، وأكملت:

- لقد أخذت الحرب كل شيء، حتى الحنين صار ترفاً لا أستطيع دفع ثمنه.

نظر في عينيها، فلم يرَ سوى بقايا امرأة، تشبه الخيط الواصل بين النجاة والموت.

مدّ يده مرّة أخرى، وأمسك يدها قائلاً وهو يسحبها معه ببطء:

- تعالي معي... هيا، البيت مُوحِش دونك، على الأقل هناك جدران مازالت قائمة، وهواء يمكن أن يُتنفّس، أقسم لك أن هذا المكان يسرق روحك كل لحظة، لا تتركيه يبتلعك كما ابتلعهم.

لم تردّ عليه، بل أكملت السير معه كطفلة صغيرة، ثم همست بصوتٍ متهدّج:

- شعرتُ وأنا بين الركام برائحة القهوة، وكأنّ أمي تعدّها الآن، وستنادي على والدي لتحتسيها معه.

شدّ عمر على يدها، ثم قال بقسوة الخائف المحب:

- يكفي أرجوك، لا يمكنك إعادتهم، ولن يعودوا... وإن بقيتِ العمر كلّه ترثين مماتهم.

حين خرجا من الحي، التفتت تودّع بقايا المدينة، فهمست بصوتٍ بالكاد يُسمع:

- اغفروا لي، فأنا لا أحتمل الرحيل عنكم، ولا أملك قوّة البقاء.

دخلت معه إلى البيت ورائحة القهوة مازالت تلاحقها، وكأن خراب بيتها لمّا يقتنع أن من كانوا فيه قد رحلوا حقاً.

دخلت غرفتها، دون إلقاء السلام على صبا، ولم تداعب يوسف كعادتها.

لم يمرّ وقت طويل حتى فُتح الباب بخفّة، دخلت صبا، جلست جوارها على السرير، لاحظت عينيها الدامعتين، سكتت قليلاً، ثم قالت معاتِبةً إياها:

- كنتِ هناك، أليس كذلك؟

لم تجبها، لكن صمتها كان اعترافاً صريحاً، صرخت بها صبا:

- هل فقدتِ عقلك يا سارة؟ ذاك الحي مليء بأشكال الموت، فالألغام وزّعت على مداخل حاراته، هل أردتِ اللحاق بهم؟ أن تُدفني تحت أنقاض البيوت؟

تنهدت سارة، قالت وهي تنظر إلى الجدار المقابل لها:

- ذهبتُ لأراهم، لا لأموت... أردتُ إخبارهم بأنني مازلت أحبّهم، وأنني لم أنسهم حين حَجبت الحرب بيني وبينهم، وحين ركضتُ خلف مالك.

ردّت صبا بصوتٍ غاضب:

- لكنهم رحلوا يا سارة، رحلوا... ولم يطلبوا منك أن تبقي رهينة المكان.

أسندت رأسها على كتف صبا، لكن سرعان ما شعرت بالحنين لذاك الغائب، فقالت محاولةً نسيانه:

- أتعلمين يا صبا؟ كل ما حولي يوهمني أنني نجوت، لكن النجاة في هذه المدينة ليست حياة، النجاة هنا مجرّد شكل آخر من أشكال الموت.
- هم لا يريدون منكِ البكاء يا سارة، أرواحهم تتطلّب منّا الدعاء، لا الدموع.

ابتسمت سارة بألم، وقالت:

- كل شيء تغيّر يا صبا، كان مالك يمسح دمعة أحزاني، كان يقول لي ""لستِ وحدك من تعانين، كل من في المدينة مثلك""، ومع أنها مواساة جافة، إلا أنني كنت أرتاح لأن يشاركني أحدهم ألمي.
- لأنه مالك يا سارة، لقد عرفَ كيفَ يداوي جراح قلبك.

وما إن قالت لها هذا الكلام، حتى انتفضت صارخةً وكأن صبا لمست جرحاً جاهدت لشفائه:

- وجراح قلبي التي سببها هو، من يداويها؟ كلّ ليلة كنت أتوسّل إليه أن يرحم ضعف المدينة، فلا يبالي لآلامي.

ثم رفعت رأسها عن كتف صبا، أردفت وهي ترتجف:

- حين فعل فعلته، كدتُ ألجأ إليه كما اعتدتُ، وأشكوه ألمي، لكنه الجلاد، والضحية لا تستعطف جلّادها.

حتى لو اتهم الجميع مالك بقسوة قلبه، ستظل صبا تغفر جرائمه، لأنها وحدها تعلم ما بداخل قلب مالك، ستظلّ تدافع عنه حتى لو رأت في يديه دماً لأحدهم، فهو مازال بعينيها طفلها الذي لم تنجبه من رحمها، لكنّها تعبت عليه حتى اكتمل وأصبح شاباً، وهذا لا يُعجب سارة التي تنزوي كلّما دافعت صبا عن مالك، وكذلك كلام عمر حين يوبّخ صبا إذا دافعت عنه يزعجها أيضاً.

ظلّت صبا جوارها، تمسح على شعرها حتى غفت، قبّلتها على جبينها، وخرجت إلى زوجها.

ارتمت على الأريكة في الصالة، قال عمر حين رآها:

- لا أدري كيف سمحت لنفسها بالذهاب إلى هناك وحدها.

تنهدت صبا، وقالت:

- كنتُ خائفة عليها يا عمر، رغم مرور عام على انتهاء الحرب فهي لم تخرج قبلاً من البيت.
- لا أعرف كيف فكّرت في هذا الأمر.
- ربما شعرت أنها بحاجة أن ترى ما تبقى، أن تلمس ذكرياتهم، وربما... ربما شعرت بحاجتها للبوح لهم بآلامها.

سكتت لحظة، ثم همست دون أن تهتم بما يسمعه:

- أتمنى أن تجد سبيلاً للتسامح، فتغفر لمالك ولو قليلاً.

ارتجف عمر، لكنه لم يردّ مباشرة، بل اكتفى بقوله:

- لا أستطيع أن أرى ما فعله يمكن تجاوزه بسهولة.
- الغفران ليس قبول ما حدث، بل مجرّد فرصة للقلب أن يستريح.

نظر إليها، وشرد بكلامها، ثم قال:

- ربما... ربما يحتاج القلب إلى مواجهة ما حدث قبل أن يُسامح.

ثم شعر أن الهواء لا يصل إلى رئتيه، استأذن من صبا، ثم خرج من البيت، تمشى في حارته، رغم برودة الطقس فقد شعر بحرارة الصيف تحتلّ جسده.

لم يُمض قليلاً في الخارج حتى التقى برفيقه الواقف عند الحاجز، ابتسم عمر متهكّماً من ذاته، هذا الحاجز نفسه الذي وقف عنده فيما مضى، الحاجز نفسه الذي ماتت أخته مقابله، الحاجز نفسه الذي اعتقل عشرات من أبناء حارته، ولم يظهر أحد منهم إلى الآن.

مدّ رفيقه يده بالرسالة بعد أن اقترب منه وصافحه، أخذها عمر منه، ابتعد عنهم، ثم سار إلى خارج الحارة، جلس على مقعد في حديقة عامة، فتح الرسالة، قرأ الكلمات بخفّة، من دون تغيير في تعابير وجهه، وكأنها مجرّد ورقة عابرة.

كان نص الرسالة يتحدّث عن البيت، عن الركام، عن كل ما بقي من الحارة القديمة، عن صدى ضحكات انتثرت ولم يسمعها، ومع ذلك لم يهتز عمر، قرأ الكلمات بسرعة، وكأن قلبه اعتاد على تلك الكلمات، والحكاية كلّها أصبحت روتيناً يومياً لا يُلامس العاطفة.

طوى الرسالة، وضعها في جيبه بلا مبالاة، كأنها مجرّد قطعة من الورق لا أكثر.

فتح مالك نافذته ليتنفّس، استنشق الهواء المحمّل بقطرات الندى والمُشبع بالرطوبة، تأمّل السهل الممتدّ والخيام الموزّعة على أرضه.

فتح الدفتر، مزق ورقة، وضع سيجارته في صحنها المخصّص، جلس على الكرسي، أمسك القلم بين أصبعيه، وبدأ يكتب:

سارة...

أكتبُ إليكِ هذه الكلمات من سجني الذي أعددته لنفسي كي أعاقب ذاتي على جرمي.

أكتب إليكِ من سجني المطلّ على المخيم، حيث تتلألأ المشاعل على السهل الممتدّ، وكأنها أرواح تبحث عن مأوى، أتأمل كل ما حولي، وأسترجع في ذاكرتي اثنتي عشرة سنة قضيتها في الظلام، بعيداً عن العالم، بعيداً عن الحياة، لكنني ملتصق بصبا، التي كانت كل حياتي، أمنيتي ودفئي.

كنتُ صغيراً جداً حين أخفوني هناك، ليس عمري سوى ست، غيري لم يدخل الدراسة بعد، وأنا دخلتُ قبواً مظلماً، لم أخرج منه إلا وقد أفنيتُ طفولتي فيه.

صبا كانت حضني الدافئ، أمي وملجئي الوحيد في هذا الظلام الطويل، اعتنت بي وداوت أسقامي وكل عللي، حضنتني حين رأتني أرتجف خوفاً، مسحت دموعي حين بكيت، علّمتني القراءة والحساب والصبر على المصاب، وكل شيء يحتاجه طفل لم يعرف الحياة بعد.

أتذكّر أوّل ليلة كأنني أراها الآن أمامي، كانت أبشع ليلة في حياتي، الليلة امتدّت اثنتي عشرة سنةً، كلها صمتٌ وظلام، رأيتُ ظلالاً تلاحقني في الزوايا، وفئراناً تتراكض أمامي كأنها تلاعبني، بينما أخبّئ قدمي كي لا تصبحَ مطمعاً للفئران.

أوامر صبا كانت قاسية يا سارة، لكنها لصالحي، إذ أمرتني ألا يسمع أحد صوتي كي لا أُرمى في الخارج، هذا التهديد جعل مني طفلاً مطيعاً، ضعيفاً ووحيداً، أرتجف من أصوات قلبي قبل أصوات العالم، ومع ذلك كانت صبا تداويني بكلماتها ولمساتها، وحدها منحتني النور والطمأنينة في قلب هذا السجن المظلم.

تعلقتُ وتشبّثتُ بها كما يتشبّث الغريق بخشبة تطفو، حبّها لي يا سارة كان حبّاً طاهراً، فيه حماية وحنان، حب أمّ لطفلٍ لم يعش طفولته، فأعطاني القوّة لأتحمّل سنوات العتم الطويلة.

ومع مرور السنين بدأتُ اكتشف العالم ببطء، كنتُ أريد الخروج، رؤية الشمس، لمس الحريّة، لكن صبا منعتني، بحجة حمايتي من الخطر الخارجي، إذ كانت كأمي تخشى على قلبي من الأذى، وفي كلّ مرة أطالب بالتحرر والخلاص، تخبرني أن العالم ليس جاهزاً بعد لاستقبالي.

أحياناً أشعر أنها بسبب حمايتها المبالغ بها آذتني دون أن تشعر، ربما كان مجرّد شعور في لحظات اليأس التي تنتابني كلّما تنمّرَ عليّ أحدهم.

حمل سيجارته وقد احترق نصفها، نفث دخانها، تنهّد، تأمّل السهل الواسع، وصلت إليه ضحكات الصغار، ابتسم بحنو وأكمل:

وضعوني هناك بسبب خطيئة لم أرتكبها، فلم أكن مسؤولاً عنها، ومع ذلك عشتُ حياتي أسيراً كأن العالم قرر معاقبتي بذنبٍ لم أرتكبه.

لنعد إلى الليلة الأولى، مازلتُ أذكرها، لا أستطيع نسيانها إطلاقاً، لأنها تشبه كابوساً حيّاً، التفّ الظلام حولي من كل جانب، أصواتي انحصرت بين أربعة جدران رطبة، كل شيء بدا أكبر مني بكثير، مخيف، لا يُطاق، لا أعرف كيف تُركتُ، بمن أستنجد، كيف استوعب أن هذا السجن الصغير فُرض ظلماً على طفلٍ بريء.

خفتُ... خفتُ من كلّ صوت، من كلّ ظلّ، من كلّ خطوة صغيرة تصدر عني، كل شيء حولي يذكّرني بأنني محاصر، عاجز، طفلٌ لا حيلة له في مواجهة هذا الكمّ الهائل من الظلم، شعرتُ حينها بالذنب، بذنبٍ لم أرتكبه، وخطأ لم أفعله، وكأن الحياة نفسها حكمت عليّ بالسجن الأبدي.

رغم أن صبا عاملتني كطفلها، فإنها لم تستطع أن تحرّرني من هذا الظلم، فترفع عني شعور القهر والألم، لم تستطع منعي أن أعيش محاصراً بسجن لا يشبهني، ولا أستحقّه.

كنت أتساءل دوماً "هل الله يعاقب دميمي الخِلقة، حتى عُوقبتُ بهذا العقاب؟""

كل يومٍ كان اختباراً، كل لحظة كانت صراعاً بين خوف طبيعي، ووجع داخلي لا يُطاق.

ارتجفتُ، بكيتُ في صمت، صرختُ في داخلي، لكن صوتي لم يسمعه غيري، مُنعتُ من رؤية الشمس واللعب مع أخويَّ، حُرمتُ من احتضان جدتي، وعناق جدّي.

صبا كانت عوضي عن عائلتي، مع أنها الوحيدة التي لا تحمل اسم العائلة، ومع ذلك تحمّلت مسؤولية طفلٍ لم يكتمل عمره.

ثم كبرتُ، صار عندي وعي، وصار الخوف من الظلام الخفي داخل قلبي أصغر، صبا كانت تمنعني من الخروج خوفاً عليّ من العالم، لكنها لم تمنع عني الشعور بالذنب، شعور الطفل الذي عوقب بالسجن على خطيئة لم يرتكبها.

كلما مرّ يوم كان يكبر شعور العزلة بداخلي، ويجعلني أستشعر حجم القهر الذي واجهته وحدي منذ أن وضعوني هناك.

حين خُطِبتْ صبا لعمر، شعرتُ حينها بفراغ يتسلل إلى روحي، زياراتها لي خفتت، وبقاؤها صار أصعب التحديات، لكني فهمتُ خوفها، فهمتُ أنها كانت تحميني بطريقتها الخاصة.

كل ما تعلّمته من صبا ظلّ محفوراً في قلبي، رغم كل الظلام والوحدة، ورغم ما فقدته في العالم الخارجي.

أما عمر يا سارة، فكان يأتي ليبعدني عن صبا فحسب، ليخبرني أن التعلّق الزائد بها سيؤلم قلبي أكثر، وأن عليّ الابتعاد عنها والتوسّل إليها لتحررني.

ربّما مرة واحدة فقط شعرتُ فيها أنني أحمل دمه، حينها تمنيتُ أن يطول عناقنا، تمنيتُ أن يكون سندي في هذه الحياة الظالمة، لكنه أمسك يدي، شدّ عليها، ثم تركني أنزلق دون أن يبادر لمساعدتي.
أحياناً أشعر بمحبته لي، وأحياناً أشعر أنني ندٌّ له، يُساق كلانا إلى حلبة مصارعة والغلبة له، فصبا اختارته هو... لأنه رجلها منذ البداية.
وأنا... أنا يا سارة عالقٌ في المنتصف بينهما، هي ترفض أن ترخي يدها، وهو يرفض مدّ يده إليّ.
وبعد اثنتي عشرة سنةً، خرجتُ حرّاً كما تمنيت، لكن العالم حينها لم يكن جاهزاً لاستقبالي، البيت فارغ، الحارة خاوية، والسماء تمطر قذائف لا ترحم.
صرختُ حينها بأنني حرٌّ الآن، ولكن... لم أعلم أنها صرختي الأخيرة، وأن الحرية في هذه المدينة لها دلائل يُستحب ألا يسمعها أحد.
سارة...
لا أحد يمكنه معرفة حجم هذا الألم، حجم هذا القهر، حجم الحب الذي كان لصبا، كل شيء ظلّ محفوراً في قلبي كخطيئة لا تُغتفر.
مالك

انحنت الشمس نحو الغروب، تلوّن وجه المخيم بلون نحاسي حزين.

وصل يزن وأمه وشقيقته إلى المخيّم، تأمّلت صبا الخيام المتناثرة، كأنّ كل خيمة تروي قصّة وجع لم تكتمل.

سار يزن بهما بخطوات نحو خيمة يعرفها، أما صبا فوقع نظرها على ذاك الكوخ المنفرد البسيط، كأنّ صاحبه اختار لنفسه عزلة أبدية، قريباً من الخيام، بعيداً عن عالمهم، أشاحت بنظرها عنه، ربما كي لا تحنّ له، أو تعاودها ذكرياتها عن طفولته.

حين اقتربوا من الخيمة وجدوا ديمة تقف على بابها بشعرها المجعّد الذي تمرّد على المشط، وعينيها السوداوين كليلٍ حزين.

التقت نظراتها بنظراته، فاهتزّ شيء في صدره، ابتسم لها، فارتبكت، ابتعدت لتفسح الطريق، نادت على والدتها بصوتها الرقيق، فخرجت تلك لاستقبال الضيوف، قالت مرحِّبة بهم وهي تزيح الستارة القماشية عن باب الخيمة:

- أهلا وسهلاً، تفضّلوا.

شكرتها رندة بصوتٍ دافئ رزين، دخلوا جميعاً إلى الخيمة، وجلسوا على سجادة بالية، كان الهواء محمّلاً برائحة الرطوبة والزعتر اليابس والذي كانت والدة ديمة تغلي منه لعلّة أصابت صدرها.

تبادلت النساء التحيّات والمجاملات، تحدّثن عن أوضاع المخيّم والمدينة، ثم قالت رندة:

- سمعنا كثيراً عن كرمكما وصبركما، سبحان من جمع القلوب رغم المسافات.

ردّت أم ديمة بصوتها المتعب:

- وحدها القلوب التي ذاقت الألم تجتمع ببعضها.

تأمّلت صبا الخيمة المتواضعة، ثم قالت:

- الخيمة دافئة، تشبه الحنين لشيء قديم.

ردّت ديمة:

- ربّما لأنها حملت أوجاعنا، ومازالت تحمل صبرنا.

سكت الجميع لحظة، بينما ظلّ يزن يراقبها في صمت، وكأنه يحاول حفظ ملامحها، كل كلمة منها تلامس قلبه، لم يرَ شعرها كما يراه الآخرون. بل رآه كشجرة سكنتها الريح واستوطنت، لم يرَ عينيها السوداوين إلا كبئرٍ في الليل يتمنى السقوط فيه طوعاً، سألها بهدوء:

- ألا تشعرين بالضجر من ضيق المكان؟

نظرت إليه بسرعة، ثمّ قالت بنبرة جافة:

- تعتاد الروح على أيّ مكان، ولاسيما إن كان الخارج قاسياً.

ابتسم بخفوتٍ وقال:

- ربما لو خرجتِ قليلاً، إلى المدينة مثلاً... لَتغيّر الخارج الذي رسمتِه في عقلك.

ردّت رندة عليه حين لم تصل إجابة من ديمة:

– المدينةُ هذه الأيامَ مزدحمةٌ، لقد عاد أهلها أخيراً.

ردّت أم ديمة:

– المدينة لا تحب الغرباء، إلا إن وجد من يرافقه في خطاه.

ردّت صبا بنبرةٍ عجلةٍ:

– لكنكما لستما غريبتين يا خالة، أنتما من أبناء المدينة.

رفعت ديمة نظرها إلى صبا، ثم إلى يزن، فرأت ابتسامة هادئة مرتسمة على وجهه، ليست مغازلة بل اعتراف صامت بحبه، فكان ينظر إليها وكأنها الوحيدة في الخيمة، أما هي... فشيء اهتزّ في داخلها، كانت تستمع إلى أحاديثهم، لكن عقلها قد جلب لها صورة والدها حين قُتل، وجهه، دمع، الحاجز، وأصوات رصاص.

قالت بصوتٍ فيه غصّة:

– المدينة أخذت منا الكثير، ليس سهلاً أن نعود إليها.

أطرق يزن رأسه لحظة، ثم رفعه إليها وقال:

– لكنكِ في نهاية المطاف ستعودين، لا يعقل أن تظلّي العمر كلّه في هذه الخيمة.

لم تردّ عليه، وإنما استأذنتهم لصنع القهوة، وحين وضعت الدلّة على النار، التقت عيناها بعينيه مرّة أخرى، كانت نظرة طويلة بين حبٍّ وريبة، بين شوق لم تفهمه، ووجعٍ لم يفهمه.

استمرّ الحديث بين العائلتين، رندة تحدّثها عن غرابة المدينة، وأم ديمة تحدّثها عن الحرب وأحوال المخيم.

أما صبا فعقلها وقف عند ذاك الكوخ الوحيد، تتمنى لو بإمكانها الدخول إليه وعناقه، والاعتذار إليه كثيراً.

قالت أم ديمة وهي تصبّ القهوة:

- الحياة هنا بسيطة، لا نحلم بالكثير، نريد العيش بأمانٍ دون خوف فحسب.

ردّت رندة:

- ومن قال إنكم لا تستحقون الأفضل، وجعكم هو وجعنا جميعاً.

عاد الصمت يخيِّم على الجميع، فقطعته رندة بقولها وهي تتأمل ديمة:

- لقد أعجب يزن بكِ يا ابنتي منذ لقائكما الأول، وما أعجبه بكِ إلا هدوؤك ورزانتك.

اتسعت عينا ديمة قليلاً، بينما وضعت الفنجان جانباً، في حين أكملت رندة كلامها موجّهة حديثها هذه المرّة للأم:

- نحن اليوم جئنا بنيّة طيّبة، نرغب أن نرتبط بكما برابط الخير والمودّة.

نظرت إلى يزن ثم إلى ديمة وأكملت:

- يزن يرغب في خطبة ابنتك إن رُزقنا رضاكما.

ارتبكت ديمة، بينما ساد الصمت لحظات، ثم قالت الأم بصوتٍ متزّن يخفي ارتباكها:

- الأمر... مفاجئ، لم نتوقع هذا الأمر.

ردّت رندة:

- أفهمكِ تماماً، نحن لا نطلب منك سوى التفكير، فنحن وجدنا في ابنتك ما يستحق التقدير.

رفعت ديمة رأسها إلى يزن فرأت في عينيه حبّاً صادقاً، لكنْ في قلبها ارتفع صوتان متناقضان، أحدهما يأمل تصديق تلك النظرة، والآخر يذكّرها بوالدها... بالدم... بالثأر.

كسرت الصمت أم ديمة بقولها:

- نحتاج إلى التفكير بهدوء، فاسمحوا لنا بيومين فحسب.

ابتسمت رندة، وقالت:

- لكما كلّ الوقت، وما يُكتب لنا لا يفوتنا.

نهضوا جميعاً استعداداً للرحيل، وعند باب الخيمة، مال يزن على أذن ديمة وهمس بعشق:

- أشكرك على القهوة... كانت تشبهك.

لم تجبه، لكن شعرت بحرارة غريبة في صدرها، حرارة... لم تعرف، هل هي بداية حب؟ أم بداية ثأر؟

دخلت إلى الخيمة بعد رحيلهم فوجدت والدتها ترتّب المكان، جلست وضمّت ركبتيها إلى صدرها، التفتت أمها إليها، وقالت:

- ما الذي حدث الآن؟ لم أستوعب ما جرى، لقد كان مستعجلاً، وكأنه نسج الأمر من قبل، هل أخبركِ بهذه الزيارة؟

لم تجبها ديمة، كان عقلها مشغولاً بين الماضي والحاضر، فصرخت والدتها باسمها، ثم قالت بصوتٍ أكثر حدّة:

- أتسمعينني؟

التفتت ديمة إليها، وقالت:

- سمعتكِ يا أمي، كل كلمة قالوها سمعتها أيضاً، ما الغريب في الأمر، رجل أحبّ، وأم جاءت تطلب يد فتاة رأتها مناسبة من قبل، ثم هو أخبركِ بطلبه من قبل.

جلست أمها بجوارها، وقالت:

- الدنيا ليست بهذه البساطة يا ديمة، أنا وأنتِ نعلم الأمر جيداً، يزن ابن المدينة التي ذاقت دمنا، وابن الذين مرّوا فوق دماء والدك دون أن يلتفتوا.

ارتعشت شفتا ديمة، لكنها تماسكت، ثم قالت بنبرة خافتة مليئة بالقهر:

- أعرف، أعرف يا أمي، فأنا لم أنسَ ما حدث لأبي، كل ليلة أراه أمامي، أسمع أنفاسه الأخيرة، وأسمع نعال الرجل الذي أطلق عليه النار وهو يمشي أسفل بيتنا.

اقتربت من أمها وجلست قبالتها، فأكملت ديمة كلامها بألم:

- لكني أيضاً رأيتُ يزن اليوم... ولم أرى في عينيه قاتلاً.
- العين تخدع يا ديمة، والطيبة الظاهرة لا تبرّئ الدماء من أيديهم، أنا لا أتهمه، لكن لا أريدك أن تنخدعي، كم من طيّب في المظهر، في داخله ذئب ينتظر لحظة الضعف.
- هل تعلمين ما يؤلمني أكثر؟ أنني حين نظر إليّ، شعرتُ بشيء في صدري يلين، شيء لم أعرفه منذ رحيل أبي، وكأن قلبي خانني.

سكتت قليلاً، مسحت دموعها، وأكملت بنبرة متحدّية:

- لكن... لن أسمح أن يخونني مرتين، هذه المرّة سأستخدمه سلاحاً، لا ضعفاً.

شهقت والدتها وقالت:

- إياكِ يا ديمة، لا تتحدّثي بهذه الطريقة، الانتقام لا يعيد أحداً، ولا يطفئ النيران، بل يزيدها اشتعالاً.

ردّت بعينين دامعتين:

- بل هو ما يطفئها يا أمي.
- ثلاثة عشر عاماً نعيش بين الغبار كي لا يلمحنا أحد، الثأر لا يجلب إلا ثأراً أكبر.

لم تردّ عليها، بل جلست تقضم أظافرها، في حين أكملت والدتها:

- أنتِ لا تعرفين الحقيقة كاملة، ربما يزن لم يكن هناك حينها، ربما لم يطلق النار، وربما لم يذنب أصلاً.

ثم أمسكت يد ابنتها وقالت:

- أتريدين أن تظلمي قلباً بريئاً؟ ألا تخافين أن تكوني أنتِ الخاطئة هذه المرّة؟

أطرقت ديمة برأسها، وردّت بصوتٍ مبحوح:

- أنت أيضاً تشكّين فيه يا أمي.
- ومع ذلك ألتمس له الأعذار حتى أسمع حجّته.
- إذن سأقترب منه لأعرف... لأعرف إن كان مذنباً... أم لا.

صرخت فيها:

- وتلعبين بالنار كي تكتشفي إن كانت حارقة؟
- ربّما عليَّ الاحتراق أولاً لإطفاء النار كلّها.

مسحت الأم على شعر ابنتها، وقالت بصوت هادئ:

- ليتَ أباكِ هنا ليراك، إذن لقال لك "إن الكره لا يبني بيتاً، ولا الحب يُشفى بالثأر"، احذري يا ديمة... أحياناً نزرع الانتقام فنحصد أنفسنا.

لم تجبها ديمة، فصوت يزن يتردد في أذنها (القهوة كانت تشبهك)، ابتسمت بتهكّم، وقالت في سرّها "ربما كنتَ تشبه النار التي سأشعلها قريباً.

وفي الخارج كانت رندة تدور بعينيها في السهل الواسع، ثم قالت فجأة:

- أرغب في زيارة مالك.

كلماتها بسيطة، لكنّها سبّبت التشتت لصبا التي حاولت الابتعاد قدر الإمكان عن مكان وجوده كي لا تحنّ إليه، أما يزن فردّ عليها قائلاً وهو يشير إلى الكوخ:

- موجود هناك، في ذاك الكوخ.

أومأت برأسها، ثم قالت بلهفة:

- تعالَ نذهب إليه، أرغب بالاطمئنان عليه.

اتجه هو ووالدته، في حين ظلّت صبا مكانها، ثم اقتربت من شجرة الزيتون، وأسندت ظهرها إليها.

وفي الوقت نفسه وداخل الكوخ، كان مالك مستلقياً على سريره، يتصبب عرقه بغزارة، قلبه يخفق وكأنه يريد الخروج من مكانه والهرب بعيداً، ضاق الكوخ به، فكلّ شيء حوله يهمس باسمٍ لا يعرفه.

رأى نفسه: يقف أمام طفله، يحدّق فيه بعينين لا ترحم، وجهه مشوّه، وصوت بكائه ضجّ به الكوخ، لكن... لا صوت يصل إلى أذنيه إلا صوته، وكأن العالم كله صامت ليسمع هذا الصراخ المخيف.

اقترب من الرضيع بهدوء، حاول إمساكه، لكنه اختفى، ثم ظهر مجدّداً، بعيداً عنه، حاول الاقتراب، فصرخ الصغير:

- لم تحمِني... قتلتني... ستدفع الثمن.

حاول الصراخ، لكنه لم يستطع، أراد الهروب، لكن الأرضية تحوّلت إلى وحلٍ التصقَ بقدميه، وفجأة ظهر والده، وجهه مشوّه، كأنّه ورث التشوّه عن والده ليُورثه صغيره، عينا والده مليئتان بالغضب، قال بصوتٍ حاد:

- من الخطيئة ولدتَ... وإلى الخطيئة انتهيتَ.

ثم ظهر صغيره مجدداً، يصرخ بألم، وكأن أحدهم يحاول خنقه.

تعرّق مالك بشدّة، ثمّ أتت دقات على الباب قطعت الكابوس، لكنها تقاطعت مع صدى الصراخ.

فتح عينيه بصعوبة، ارتجف من رأسه حتى أخمص قدميه، دقائق قصيرة مرّت وهو يحاول أن يتذكّر أين هو، ثم سرعان ما سمع دقات الباب المرتفعة، وكأن الطارق لحوحٌ في طلبه.

نهض يجرّ قدميه إلى الباب وهو يشتم يزن في سرّه، فلا أحد يطرق هكذا إلا شقيقه، لكنه صُدم حين وجد زوجة والده واقفة في الباب، وإلى جوارها يزن، ظلّ يتأملها، لم يرها إلا مرّة واحدة، لم يدقق حينها في تفاصيل وجهها كثيراً، ربما لأنه كان طفلاً صغيراً، لكن... يا الله، وكأنها نسخة من صبا.

قالت بهدوء حذر:

- أيمكنني الدخول؟

أومأ برأسه، وابتعد مُفسحاً لها المجال، في حين رفض يزن الدخول لترك مساحة لهما بالعتاب، وما إن همّ مالك بإغلاق الباب حتى توقفت عيناه على تلك البعيدة، كما تركها منذ عام، وكأن المدينة لم تُغيّر فيها شيئاً.

كانتا عيناها تنظر إليه بخجل، شعور الندم يغمرها، كأنها تريد الاعتذار عن كل ما فات، لكنها تعرف أن الكلمات لا تكفي، وأن رصيدها من الاعتذارات قد نضب.

نظر إليها طويلاً، في نظراته عتاب وحزن، حب بريء لم يمت، حبّ عميق لم يفهمه أحد، وفي نظراتها اعتذار صامت، مرّ الماضي أمامه، كل علّة داوتها، كل دمعة مسحتها، وكل خوفٍ عانقته فيه.

اكتفت بالبقاء في مكانها، عيناها لم تفارقا وجهه كأن ذنبها يفضحها.

أخذ مالك نفساً عميقاً، ثم أغلق الباب بهدوء، استدار إلى رندة الجالسة على الكرسي الخشبي، كانت تتأمل أثاث الكوخ العتيق، جلس على السرير منهكاً من الكابوس الذي راوده قبل مجيئها، تطلّع إلى وجهها، ثم سألها:

- أيّ رياح حملتك إليّ؟
- لطالما خفتُ من هذا اللقاء لأعتذر لك.

ابتسمَ متهكّماً وقال:

- ألا ترينَ أنكِ تأخّرتِ قليلاً؟
- أعلم أن اعتذاري جاء متأخراً، أكثر من خمس وعشرين عاماً، أعلم أن الوقت قد مضى، لكن في حياتك مازلت واقفاً مكانك.
- وما الذي جدَّ الآن؟

- قد يكون الوقت فات، وقد تكون كل الفرص أغلقت، لكن أريد أن أطلب منك شيئاً.

ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة، لكنه تحمل شيئاً من السخرية المريرة، وقال:

- طلبكِ جاء متأخراً... بعد خمسة وعشرين عاماً من الألم، هل تعلمين ذلك؟

أومأت برأسها بهدوء، ثم قالت:

- طوال تلك السنوات كنتُ أفكّر بك، سألتُ عنك كثيراً، وبحثتُ في الحواري والأزقّة، تمنيتُ أن أجدك وأعوّضك غياب والدتك، أعوّضك عن الحنان الذي لم تنله، عن الحياة التي حرمتك إياها أمك.
- وصلتِ والروح قد شاخت، بعد عقود من الانتظار... بعد ألمٍ لم يخفّ، بعد فقدان لا يعوّض.
- أعلم... وأدرك أني قد أكون متأخّرة جداً، لكن قلبي لم يهدأ، وروحي لم تبرأ من الألم... أريد فرصة لإصلاح ما مات فحسب، ولو قليلاً.

صمتَ قليلاً، ثم قال:

- رغبتكِ حسّنت شيئاً في قلبي، لكنها أيضاً جعلتني أتذكّر ما فقدت.

ابتسمت له بحنان، ثم قالت:

- أتمنى أن تسامحني على اللحظات التي لم أكن فيها معك.

أومأ لها، فنهضت، ثم قالت:

- هل أستطيع معانقتك؟

صُدم من طلبها، هذا العناق الذي حُرم منه وهو في أوج مراهقته، ومن وقتها لم يعانقه أحد إلا سارة، فالتمعت عيناه بالدموع، فضمّته إلى صدرها، كوليدها الذي فقدته، ووجدته الآن.

أعجبه هذ العناق، ودّ أن تظل هكذا العمر كلّه، ومع ذلك ابتعد عنها، وقال بنبرة صادقة:

- حضورك الآن أعادَ إليّ شيئاً من الروح التي فقدتها.

خرجت رندة، بينما ظلّ على عتبة الباب يتأمل صبا بحزنٍ عميق، فهي لم تقترب منه بتاتاً، ولم تعطه فرصة للتقدّم إليها.

أغلق الباب بألم، جرّ قدميه إلى الموقد، أشعل النار فيه، ثم جلس على الكرسي أمام الطاولة، حمل قلمه، وبدأ يكتب:

سارة...

أكتب إليكِ الليلة بعد أن أُغلقتْ الأبواب في وجهي، وبعد أن رحل الضوء من نافذتي الصغيرة، وبعد أن صرتُ وحيداً تماماً، لا يشبهني أحد، ولا يذكرني أحد، ولا ينتظرني أحد.

جاءتني رندة اليوم... قالت إنها تريد أن تكون أماً لي، أن تعوّض غياب أمي، أن تمنحني الحنان الذي تأخّر خمسة وعشرين عاماً.

ابتسمت...لا فرحاً، بل سخرية، ماذا يفعل الحنان حين يأتي بعد أن يبس القلب؟ جاءني حنانها وأنا جثّة تمشي، لا تبكي، ولا تفرح، فقط تتنفس لأنها لم تمت بعد.

اعترفوا بي جميعهم، قالوا إنني ابن هذه العائلة التي أنكرتني عمراً كاملاً، لكن ما جدوى الاعتراف، إن كنتُ قد خسرتك، وخسرتُ صبا أيضاً.

سارة...

لم تؤلمني الحرب كما آلمتني خيبة الألم في صبا، كانت آخر ما تبقى لي من ضوء، ثم انطفأت فجأة، وتركتني أواجه الليل وحدي.

رأيتها من بعيد، واقفة كأمنية يائسة لا تقترب، نظرت إليّ كأنها تنظر إلى جدار مهدّم خلفي، لا إلي.

نظراتها كانت اعتذاراً خائفاً، ونظراتي عتاب صامت، وحين أغلقتُ الباب بيني وبينها، شعرتُ أني أغلقتُ آخر نافذة تربطني بالحياة.

تنهد، أشعل سيجارته، نفث دخانها ببطء، ثم وضعها في صحنها المخصّص، أكمل بألم:

لا أعلم لماذا أكتب إليكِ...

ربما لأنكِ الوحيدة التي لم تترك في صدري طعنة، بل ندبة ناعمة تشبه حنان أم لم أذقه.

أتدرين يا سارة!!

كلّما أغمضتُ عيني رأيتُ ابني، أراه كل ليلة في المنام، ملفوفاً بقماش أبيض، يصرخ ولا يسمعه أحد.
اقترب منه أحمله، لكن يدي تغرق في دمه، فينكمش جسده الصغير حتى يصير رماداً، وأستيقظ وأنا ألهث كمن خرجَ من قبره.
لهذا أخاف النوم يا سارة، أخافه أكثر من الحرب، كي لا أرى وجهاً قتلته دون رحمة.

حمل سيجارته، نفث دخانها بهدوء، تأمل النيران المشتعلة في الموقد، ثم أكمل رسالته:

بعد أن خرجتُ من البيت _يوم تحررت_ ظننتُ فيها أن الحريّة نعمة، صرختُ في الشوارع (أنا حر... أنا حر) لكن... لم أكن أعرف أن الحريّة التي لا وطن لها لعنة.
صرتُ أعدّ قذائف الصباح كمن يعدّ الركعات، كانت صلواتي اليومية للنجاة، لا... للسلام.
كنتُ أركضُ بين الأزقّة المهدّمة بحثاً عن مكانٍ آمن، طردوني من الأرصفة، من الحدائق، من المقابر، من كل مكان له عنوان.
لم أكن أملك سوى اسمي... لكنهم أرادوا هويّة، الوطن لم يمنحني إياها، أقسمتُ لهم أني ابن هذا التراب، إني حفرتُ اسمي على

جدران ذاك القبو منذ كنتُ طفلاً، لكنّهم لم يصدّقوني، ضربوني بأعقاب البنادق، ركلوني حتى نزفت، وتركوني على الأسفلت مثل كيس فارغ لا قيمة له.

ذات ليلة تسللتُ إلى فرنٍ صغير وسرقتُ رغيفاً... كنت أضحك وأنا آكله... كأني سرقتُ نصيبي من هذا الوطن المسروق.

كان الخبز يابساً، لكنه طري في فمي، ربما لأنني لم أذق طعماً للكرامة منذ زمن طويل.

رأيتُ بأم عيني كيف أرض الوطن تتفتّح لتصبح مقابر جماعية فتبتلع كل من صدّق أن الوطن لا يخذل أبناءه، فحفظتهم الأرض عن ظهر قلب، أكثر مما حفظهم الوطن وهم أحياء.

حتى الورد خجلَ أن ينبت فوق مقابر بلا أسماء، لم يصرخ أحد منهم، لكنه نزفَ كلما مرّ أحدهم فوقه بخطاب نصر.

وأنا... وأنا لا أختلف عنهم يا سارة، أنا أيضاً كنتُ بلا هوية، الفرق الوحيد أن لي اسماً، لكنه لا ينتمي لأحد، اسمي عالق بين السماء والتراب، بين اللعنة والنجاة.

صبا كانت محقّة حين قالت لي إنني لن أحتمل الحياة خارج القبو، إذ كان أكثر رحمة من العالم، على الأقل هناك كنتُ أعرف حدودي، جدراني، خوفي.

أحياناً أتساءل هل كنتُ مجنوناً حين حلمتُ بالحرية؟

أم إن الجنون كان في الذين صدّقوا أن الحرية تأتي من قلوب عديمة الرحمة.

سارة لا أريد شيئاً، لا عفواً، ولا حبّاً، ولا تبريراً.

فقط أردتُ القول إنني مازلتُ أتنفس رغم أن كل شيء فيّ قد مات.

وأن الكوابيس التي أهرب منها في الليل هي الشيء الوحيد الذي يذكّرني بأني كنتُ شيطاناً يوماً ما.

إن سمعتِ يوماً أن مالكاً مات، فابتسمي ولا تحزني، لأنه أخيراً وجد مكاناً لا يُطرد منه، ولا يسأله أحد فيه عن هويّته.

مالك

خرجت سارة من القبو، ترتعش من البرد، لفّت شالها الصوفي جيّداً حول عنقها، نظرت إلى حيث يجلس عمر شارداً، اقتربت منه، سحبت الكرسي المقابل له وجلست دون طلب الإذن منه، فانتبه إليها واعتدل في جلسته، حدّق بها قليلاً، ثمّ حدّق بباب القبو الأسود، قال بصوتٍ حازم دون أن ينظر إليها:

- هل تعلمين كم يقلقني وجودك في الأسفل؟

ثم نظر إليها، وأكمل:

– دعكِ من الماضي يا سارة والتفتي إلى المستقبل.

ردّت بشيء من الانزعاج، فهي تكره مطالبته لها بنسيان الماضي:

– أنا اعتدتُ البقاء في الأسفل فحسب، إني أجد سكينتي في الأسفل.

تنهد بيأسٍ منها، وقال:

– أخشى عليكِ، ليس لأنني أخاكِ فقط، بل لأن قلبي...

سكتَ قليلاً، ثم استجمع رباطة جأشه، وقال:

– أظنني أريدك بخيرٍ دائماً، مهما حدث فستجدينني جوارك.

ابتسمت بخفوت، وأومأت برأسها، في حين أكمل هو:

– أعرف أنكِ تحبّين الصمت عن الكلام، لكن... ليس كلّ شيء عليكِ الاحتفاظ به وحدك.

– ربّما لأنني اعتدتُ الأمر، فمالك كان كثير الصمت، قليل الكلام.

زفر بيأس حين ذكرت مالكاً في أجمل لحظات اقترابه منها، ولكن قطع هذه اللحظاتِ ولوجُ صبا التي ناظرتهما بحذر وريبة، وكأنّها تراهما أوّل مرّةٍ منسجمين هكذا. نظرت إلى عيني زوجها الذي ينظر إلى سارة نفس النظرة التي كان ينظر إليها قبل أعوام عديدة.

استفاق عمر من تحديقه بسارة حين سمع وقع حذاء زوجته، نظر إليها مرحّباً، ألقت السلام وجلست جوار زوجها، سألها عن ديمة وعائلتها، وبعدما أجابته انسحب بهدوء إلى غرفة صغيره كي يجلس معه بعض الوقت تاركاً سارة وصبا وحدهما، كل واحدة منهما تفكّر في مشكلتها.

قطعت سارة الصمت حين سألت بتوجّس:

- أرأيته؟

رفعت صبا بصرها نحوها، ابتسمت ابتسامة حزينة، ثم هزت رأسها ببطء، قالت بنبرة مكسورة:

- رأيته... من بعيد فقط، خفتُ الاقتراب منه، لا أعرف السبب، ولكن ما أعرفه أنني جبنتُ عن التقدّم نحوه بضع خطوات.

نظرت إليها سارة بلهفة، ثم قالت:

- كيف أصبح؟
- تغيّر يا سارة... لقد كبرَ، صار نحيفاً، استطالت لحيته كثيراً، وعيناه مليئتان بالوجع والندم.

أشاحت سارة وجهها بعيداً، والدموع التمعت بعينيها، أما صبا فقد سكتت لأنها شعرت بثقل جراح سارة، عرفت أنّ كل ما ستحكيه لن يخفف من ألمها.

قلبها مكسور الآن، وأيّ محاولة للتقريب بينهما ستزيد الألم أكثر.

أخذت نفساً عميقاً، ثم قالت:

– كنتُ أحبّه، يوماً ما أحببته، وربطتُ حياتي به، لكن لم يبقَ لي من ذاك الحب سوى النهاية... النهاية التي قتلت كلّ ذكرى جميلة بيننا.

بحثت صبا عن كلمات تخفف من ثقل الألم المتوضّع على قلبها، فلم تجد إلا أن تضمّها إلى صدرها، بينما انهارت تلك في أحضانها.

مرّت الأيام ببطء ثقيل، وكأن الزمن نفسه أراد أن يجعل كل لحظة تمرّ مليئة بالحزن والخوف.

ظلّ مالك معتزلاً في كوخه البعيد، ابتعد نادماً عن كل ما حوله، أغلق قلبه في مواجهة العالم، ظلّ يكتب لسارة عن خطاياه التي جعلت منه شيطاناً، عن الألم، عن الخيانة، عن الفراغ الذي خلّفته خلفها، ذكريات الماضي لاحقته، عبثت برأسه فصنعت كوابيس لا تنتهي، عن طفل قتله بيديه.

أما يزن فقد انشغل عن أخيه في تجهيز نفسه لخطبته، كان الوحيد الذي يحاول أن يجد في المستقبل ما لم يجده في الماضي، كان سعيداً جداً لهذه الخطوة، فأنسته نيرانَ البنادق والمدينة المدمّرة.

بينما صبا كانت منشغلة بمراقبة عمر، كل حركة، كل نظرة، كانت تلاحقها بعين خبير، يثير انتباهها أي ابتسامة خفيفة تظهر منه.

هناك إعجاب في قلبه لسارة، لكنه مازال طيباً، رقيقاً، ملتزماً في تصرفاته خشية أن يحرج زوجته، كأنما لا يريد أن يخطو خطوة خطأ، وهي مازالت تلتمس الأعذار والحجج وتسوّغ له.

لقد علمت بأن سارة لا تكنّ لعمر إلا مشاعر إخوّة، فقلبها مازال يملكه مالك، ومع أن سارة قليلاُ ما تتحدّث عن ماضيها، وكلما حاولت صبا فتح ذاك السر تصطدم بجدار صمتها وألمها، فتبتعد عنها صامتة حزينة لحالها.

أما لياليها... فكانت طويلة، وحيدة، إذ إن عمر دائم السهر مع أصحابه، ربما كان يهرب خشية أن يزداد تعلّقه بسارة.

في كلّ ليلة كانت تسترجع ذكرياتها مع عمر، تبحث عن الخلل، تفتّش عن النقص فيها، لقد كان دائم الغيرة من مالك وابتعدت عنه كرمى له، ما الذي حصل ليبتعد قلبه عن قلبها، أسئلة كثيرة طافت في ذهنها، لم تلقَ لها جواباً، خافت أن تفتّش خلف النظرات فتجد نفسها في متاهات لا تنتهي إلا بالفراق.

ومع مرور الأيام ازداد البعد بينهما، هو يحاول إخفاء مشاعره، فيبتسم بطريقة خافتة، سرعات ما تلتقطها، فكّرت كثيراً، كيف لرجلٍ أن يحمل امرأتين في قلبه؟ ومع ذلك لم تستطع الإفصاح عن جراح قلبها، وصمتت كما صمتت حين طرد أخاها من البيت بحجة أنه سيّد البيت الكبير، فهو من رمّمه من أثر الحرب دون مساعدة أحد.

صمتت كما صمتت حين طلب منها الاختيار بينه وبين مالك، وصمتت أيضاً حين طالبها بنسيانه، وحين أخبرها أن مجداً وولاء لن يعودا إلى هنا

إطلاقاً، لذلك لن يطالبا بحصتهما في البيت، وتبع صمتها صمتٌ أكبر وهي ترى خيانته أمام عينيها، لكنها عاجزة عن الكلام خوفاً من خسارته.

رنّ هاتف يزن وهو في غرفة المعيشة، التقطه ليجد المتّصل أخاه، بعد التحيات والسلام، بارك مجد خطبة يزن، لقد كان اتصاله بارداً، لا حياة فيه، وكأنه شخص غريب قد اضطرّ لتقديم الواجب، حدّق في هاتفه بعد أن انتهى الاتصال بينهما، ألقاه على الطاولة الصغيرة، كانت عيناه مليئة بالإحباط في المرّة الألف من برود مجد.

جاءت إليه والدته، جلست جواره، ثم قالت:

- إلى من كنتَ تتحدّث؟
- مع مجد.
- وهل سيرسل بعض النقود تعينكَ في خطبتك.

زفرَ بغضب، وصاح:

- أمي أنا لا أطلب منه مالاً، فقد باركَ لي وانتهى الأمر.

هزّت رأسها يائسة من أفعال مجد، لم يكن كذلك حين كان هنا، تركته غاضباً، واتجهت إلى المطبخ، فناداها يزن من خلفها، التفتت إليه، قال لها برجاء:

- لا تتصلي به، ولا تطلبي منه شيئاً.

ثم غادرها دون أن يسمع ردّها.

أما في برلين، فكانت ولاء تجلس على الأريكة في الصالة الصغيرة، يدها على بطنها المنتفخ، وإلى جوارها والدتها، تقشّر لها بعض التفاح، بينما جلس مجد قبالتها يتابع أعماله على حاسوبه الشخصي، قالت ولاء موجّهة حديثها إلى مجد:

- أريد النزول إلى المدينة، لحضور خطبة يزن، ولقاء أقاربي، لكم اشتقتُ إلى صبا.

ردّ عليها بهدوء، دون أن ينظر إليها:

- ليس الآن.

صاحت به:

- لا أريد إكمال حياتي في هذه الشوارع الباردة، بين أناسٍ لا أفهم لغتهم، ولا يفهمون لغتي، لا أريد أن تنتهي حياتي في الغربة، هنا كلّ شيء غريب عني.

تدخّلت والدتها بالحديث حين قالت:

- المدينة ما زالت غير آمنة، لا نستطيع العودة قبل أن تعود هي إلى ما كانت عليه.

ردّت بصوتٍ حزين، لكنه خرج غاضباً:

- لم أعد أحتمل هذا المكان، رائحة البارود في وطني لهي أفضل من هنا بكثير.

نظرت إلى والدتها، وأكملت:

- أخبريه يا أمي أننا مهما عشنا هنا، فسنظل في نظرهم غرباء، لن يحتضن آلامنا سوى وطننا.

ردّت عليها بشيء من الأسى:

- هو مُحقّ يا ولاء، أين ستعيشين؟ إن عاد فسيتشاجر مع عمر، عمر تغيّر كثيراً، لم يعد ذاك الشاب الذي حمل على عاتقيه مدينته وحارته وعائلته، لقد تغيّر إلى الأسوأ، لذلك هنا أفضل بكثير، فاصبري.

نقّلت بصرها بين الاثنين، وكأنهما اتفقا عليها، ثم غادرتهما إلى غرفتها، أما والدتها فقالت:

- إنها متعبة من الحمل، حين تلد وتحمل صغيرها بين يديها، ستنسى كل شيء.

رنّ هاتفه، نظر إلى الشاشة، كانت والدته، حين رأت امتعاضَه زوجةُ عمّه تركته ليتحدّث براحة، أما هو فأجاب على الاتصال، جاءه صوت والدته حزيناً، فيه عتب وبعض الغضب:

- لمَ لمْ ترسل أي مساعدة لأخيك؟ أنسيتَ أن العائلة كانت دائماً سنداً لبعضها؟

زفر بهدوء، ثم ردّ عليها:

- أمي، أنا لا أعمل، مازلتُ أعيش على المساعدات، وزوجتي ستلد بعد شهر، يجب عليّ تجهيز كل شيء لها، فهنا كل شيء صعب، ليس سهلاً كما عندكم.
- هذا ليس مسوّغاً، المال الذي سترسله لن يشكّل فارقاً لديك، ولكنه هنا سيكون مناسباً.

ردّ بغضب محاولاً إنهاء الحوار بينهما:

- حسناً، حسناً، سأحاول.

وأغلق هاتفه، بينما تأكدت أنه لن يقوم بإرسال الأموال.

جاء يوم الخطبة الموعود في المخيم...

نُصبت خيمة أكبر من كل الخيم، صُفّت الكراسي البلاستيكية البيضاء، ووزّعت الطاولات الدائرية، كان الحضور كثيراً، فأهل المخيّم جميعهم تزيّنوا لهذه اللحظة، كان الأطفال يتراكضون بين الطاولات بفرحة نسيها الكبار منذ زمن ليس بقليل.

وفي قلب الساحة كان يزن سعيداً، يقترب كل لحظة من أذن ديمة ويهمس لها ببعض كلمات الغزل، أما هي... فكانت تنظر إليه بين الفينة والأخرى،

حين تبتسم له يشعر بسعادة لا مثيل لها، لكنه حين يرى التوجس في عينيها يشعر بهمّ هو مقبل عليه.

عادت تنظر إلى الجمع السعيد وقد ألغى عقلها مشاعر قلبها النابضة بحبه، لكن سرعان ما تتذكر بأن والدها دُفن والرصاصة مازالت في قلبه، فيرتسم الحزن في محياها قبل أن يباغتها مجدّداً بكلمات الغزل، فتبتسم له استحياءً.

أما سارة، فابتعدت عن صخب الحفل، واقتربت من شجرة الزيتون، أسندت ظهرها إليها، وعينيها على الكوخ الصغير، لقد أخبرتها صبا أنه يسكن بداخله، في داخلها رغبة موجعة في قطع المسافات وطرق الباب واحتضانه، تريد أن تسأله لماذا ترك النار تشتعل حتى امتدت إلى قلبيهما، انهمرت دمعتها، مسحتها وذكرياتهما تنهش في عقلها.

أما في الكوخ فكان الأمر أقسى مما في الخارج، إذ وضع كفّه على زجاج النافذة البارد، يحاول أن يلمسها، لم تره، لأن نظرها كان مثبتاً على الباب الصدئ، تمنى لو تزيح بنظرها قليلاً وتراه يناظرها بشوق وانكسار، تمنى أن تنكسر المسافات في هذه اللحظة، أو يعود الزمن لعام مضى، ويتجنّب ما فعله.

خرج عمر من بين الحضور يبحث عنها، فوجدها عند الشجرة تناظر الكوخ بقلبٍ يحترق، فأشعلت في قلبه براكين من ألم، لقد حاول حماية مشاعره من الانجراف إليها، ولكن قلبه اللعين خانه، وليس له لجام على قلبه أبداً، أوّل مرّةٍ يشعر بالهزيمة أمام أحد.

أما صبا، فكانت تقف بعيداً عن الجميع، تحدّثها إحدى نساء المخيم عن المدينة وأحوالها، لكنها لم تسمع لثرثرتها، لأن نظرها مصوّب لذاك المحبّ الذي يرسل نظرات عاشقة إلى امرأة تصغره بكثير، وعلاوة على ذلك، فهي أمانة في بيتهم، وزوجة ابن عمه.

عادت إلى الحفل لتقف جوار يزن، لم تعد تجد تسويغاً لأفعال زوجها، لكنها مازالت خائفة من نار الفراق، اقتربت من طفلها وعانقته، ثم توجّهت إلى العروسين.

أما مالك فظلّ يراقب المشهد كمن يشاهد فيلماً، لقد منع نفسه من حضور خطبة أخيه كرمى لها، كي تأتي ويراها، حتى لو كانت المسافة بينهما أمتاراً، كلُّ ما يهمّه لمحُها وتأمُّل محياها، تأمّل عينيها الحزينتين، صامتة كعادتها، ودّ لو يخرج ويعانقها رغماً عنها، فيخبرها عن موعد ألمه الليلي، كوابيسه، رسائله التي تتجاهلها، وحياته من دونها.

انتهت الخطبة، اقترب عمر من سارة ليحثّها على المجيء معهم، نظرت نظرة أخيرة إلى الباب، ثم همست:

- لو كنتُ أجرؤ، لطرقتُ الباب الآن.

غادرت مع عمر، بينما نظر مالك إلى ظلّهما بغضب، لقد لمح فوراً نظرات عمر العاشقة والراغبة لسارة، إنه رجل يفهم نظرات الرجال ومكرهم.

جلس على الكرسي بعد أن انطفأت أنوار المخيم، أشعل سيجارته، فكر قليلاً ريثما انتهت، أمسك القلم، وشرع في الكتابة:

سارة...

ما كنتُ أعلم أن المسافة بيننا في مخيّم صغير يمكن أن تصير بحجم مجرّة، إن جداراً واحداً قادراً على حبس أنفاسي وكسري، كما فعل هذا الجدار بيني وبينك.

ازداد ألمي ضعفاً حين مررتِ جانب الكوخ دون أن تطرقي بابه.

ما عاد فيّ جلدٌ لاحتمال هذا الغياب، كل ما فعله العالم بي من خطايا، كل ما فعلته الحرب، لم يكسرني كما كسرني بعدك.

وطنكِ سرقَ مني وجهي، اسمي، انتمائي، وحتى هويتي، لكن وحدك من سرقتِ قلبي وهربتِ به.

سارة...

حتى الحروب تعرف الرحمة أحياناً، إلا أنتِ، عاقبتني بالحرمان، بالصمت، بوجودك القريب البعيد، بدمعة سكنت عيني حين تابعتِ السير كأن شيئاً لم يكن بيننا.

أتعلمين!؟

رأيتك اليوم واقفة شاردة في بابي، كنتِ جميلة كما تركتك، وكأن الخراب لم يمرّ بكِ، نفس العينين الحزينتين، نفس الوجع المكابر الذي تخفينه خلف ابتسامة واهية.

أردتُ حينها الخروج من محبسي، لأصرخ باسمك، كما كنتُ أفعل حين نركض بين الأزقة هرباً من قذائفهم، لكن قدميّ تجمدتا، ودمعتي سبقتني.

كيف أظهر لكِ وأنا مازلتُ غارقاً في خطيئتي، كيف أواجهك بوجه تغيّر أكثر مما توقّعت.

أشعلتُ سيجارة بعد أن رحل الجميع، والليل غطّى المخيم، ثم بدأتُ الكتابة لكِ، لأنها الطريقة الوحيدة التي ما تزال تربطني بك، إذ أشعر أن الورقة هي الوحيدة التي تسمعني.

سارة...

أتذكرين ذاك الصباح، حين عدتِ إلى بيتك، فلم تجدي إلا الحجارة، وأسماءً لم تعد تُنادى، حينها وضعتِ رأسك على كتفي، وبكيتِ يا سارة... تلك المجزرة التي لم تترك أحداً من عائلتك.

كان هذا أول لقاء بيننا، كنتِ جميلة بالرغم من أن الغبار والدموع قد رسموا خرائط على وجهك، أخبرتِني حينها أنكِ لا تريدين سوى الاتكاء والانهيار بعيداً عن صخب المدينة الهائجة بأزيز الصواريخ المرعب.

سارة...

أنتِ أول من لم يخف من وجهي، حين كانوا جميعاً يهربون مني.

أنتِ اقتربتِ، حين كنتُ أكره المرآة.

أنتِ نظرتِ في عيني وأخبرتني أنك معي.

حين كان الخوف سيّد المدينة، كنتِ تضحكين وتقولين "ما دمنا نركض معاً، فلن نموت اليوم"، كنا نسرق لحظات حياة من فم الموت نفسه، نهرب من القذائف، نَعُدّ خطواتنا فوق الحطام، ونبتسم رغم الألم.

أتذكر ذلك اليوم حين نام الجميع في الملجأ، وضعتِ رأسك على كتفي، وقلتِ "غداً سنخرج من هنا، ونمشي في شوارع المدينة دون خوف"، أخبرتني أننا سنعود ونبني حاراتنا من جديد، كنتِ تحلمين، وكنتُ أصدّقكِ أكثر من أي حقيقة.

وحين ذهبتُ مع الطبيب جمال لتغيير ملامحي، ظننتُ أنني سأعود إليكِ بعد أيام.

غيّرتُ وجهي كرمى لكِ، لأصبح جميلاً كما تستحقين، أردتُ إصلاح وجهي لأليق بكِ، لكن القدر كان أبطأ من شوقي، وأقسى من حلمي، تأخرتُ عنك، وأضعتُ الطريق، وضاع وجهي القديم، وضعتِ أنتِ في دروب المدينة.

وحين عدتُ كنتِ ما تزالين في مكانك، عند الإشارة ذاتها، تبيعين المناديل الورقية، بيني وبينك ألف مسافة، لكنكِ اختصرتها بحنانك، فاحتضنتِ وجعي، وعانقتِ ألمي.

والآن المسافة بيننا أمتارٌ قليلة، لكنها مليئة بالوجع والغضب، كم حلمتُ بالعودة إليكِ، إلى البيت الكبير، أطرق الباب، فأجدك جالسة تحت شجرة التين بانتظاري.

سارة...

كلّ ليلة تمرّ عليّ كأنها عمر كامل.

كل دخان من سيجارتي هو نفس من ذكراكِ.

كل صوتٍ في الخارج يذكّرني بخطواتك.

كل نجمة في السماء تشبه لمعة عينيك.

وكل غيمة سوداء تشبه وجعي حين رحلتِ دون وداع.

لم أكن بحاجة إلا لنظرة منك، لمسة على كتفي تخبرني أنكِ سامحتِ.

لكنكِ بقيتِ بعيدة، كأنكِ تخافين الاقتراب، كأنكِ تخشين السقوط فيّ من جديد، وأنا مع الأسف كل يومٍ أسقط فيكِ ألف مرّة ولا أتوب.

سارة...

الحرب جعلتني رقماً بين المفقودين، ظلاً بين الركام، لكن فيكِ وجدتُ وطني الوحيد.

حين تبتسمين، أشعر بالانتماء، حين طالبني الطبيب جمال بالخروج، وقال لي إنه يملك عائلة بحاجته، كنتُ أول مرة أسمع هذه الكلمة، لم أجد حينها سواك عائلتي، خرجتُ من القبو، وعانقتك، أخبرتك أنك عائلتي، فلا تتركيني، كانت الكلمة لي دافئة... دافئة جداً يا سارة.

حين كنتِ تهمسين لي أني لستُ مثلهم، كنتُ أؤمن أنني مازلتُ حيّاً، الآن أعيش بلا انتماء، بلا لغة، بلا وجوه أعرفها، حتى وجهي هذا، لا أشعر أنه يخصّني بعد أن لعب فيه جمال كما أرادَ.

الكوخ الذي أسكنه لا يشبهني، والمرآة تخونني كلما نظرتُ إليها، ورأيتُ فيها ملامح لا تسكنني.

لكن الحروف... الحروف وحدها مازالت تشبهك.

كلّ كلمة أكتبها تحمل شيئاً منك، من عطرك، من دفئك، من وجعك.

سارة...

كم من مرّة حلمتُ أن تطرقي الباب، أن أسمع صوتك يقول "كفى عذاباً، لكن صمتك أطول من أي حلمٍ آخر".

الصمتُ الذي بات يملأ المكان بيننا صار سكيناً تُغرس في صدري.

لو تعلمين كم اشتقت لأن أضمك دون خوفٍ أو تردد، أن أضع رأسي على صدرك وأبكي كما لم أبكِ من قبل.

لو تعلمين كم أتمنى أن تسامحيني، أن تنظري إليّ كما كنتِ تفعلين قبل الوداع، قبل الوجع، قبل كل هذا الخراب الذي تركنا غرباء حتى عن أنفسنا.

سامحيني يا سارة...

ليس لأنني أخطأتُ فقط، بل لأنني أحببتكِ بصدق، أكثر مما يحتمل رجل أنهكته الحرب.

لأنني لم أستطع الاقتراب منكِ رغم أنكِ على بعد خطوات مني.
سارة...
أحبك كما تحب الأرض المطر بعد جفاف طويل، كما تحب الأرواح ضوء الفجر بعد ليلٍ طويل من القصف.
مالك

مرّت أيام على خطبة يزن، جاء إليها قبل غروب الشمس، نظر إلى الكوخ الصغير، قرر أن يعرِّج على أخيه أولاً، ثم عليها لاحقاً.

طرق الباب طرقتين متتاليتين، عرف مالك من في الباب، فتحه، ثم عاد إلى طاولة طعامه.

كان يأكل بهدوء بعض البطاطس المسلوقة، تنهّد يزن، يعرف أن رأس أخيه قد صُنع من حجر، فهو عنيد جدّاً.

جلس على الكرسي المقابل للنافذة حتى انتهى مالك من طعامه، غسل يديه، ثم جلس على السرير.

تحدّثا بشأن الخطبة وديمة، كان يزن سعيداً وهو يتحدّث عن محبوبته حتّى تطرّقا إلى أحوال المدينة، فتنهد، ثم قال:

- الوضع في المنطقة الشرقية أكثر تعقيداً مما نعتقد، لم يسلّم أحد سلاحه، إنهم يرفضون السلطة الجديدة، يتعاونون مع الأعداء، ويقتلون كل من يخالفهم، لقد سيطروا على عدّة مدن صغيرة، ولكنهم مازالوا يخططون للسيطرة على المنطقة الشمالية كلها.

شعر مالك بقسوة الكلمات تخترق قلبه، فسأله:

- أيعقل أن تبقى الأمور على هذا النحو؟ ألا يهمهم أمر المدينة ووحدتها؟ أبعد هذا الدمار والدماء؟
- الناس هناك متعبون، يفرّون كل يوم خوفاً من الموت، ومن بقي يعيش في صمت، خوفاً من الخطأ، من الكلمة، من النظرة، كل شيء مقلوب رأساً على عقب.

أومأ مالك برأسه حين تردد يزن في القول، ثم سرعان ما أخبر مالكاً بما في جعبته حين رأى نظرات أخيه المشجّعة:

- عد إلينا يا مالك، هناك من تنتظرك، قاتِل من أجلها، لا يمكنك البقاء بعيداً عن حياتك، عمن يحتاجك.

أشاح مالك بوجهه بعيداً عنه، بينما أكمل يزن:

- العودة سهلة وليست صعبة كما تعتقد، أرجوك تعال معي.
- ليس قبل أن تسامحني.

جوابه جاء قاطعاً، لا رجعة في قراره، تنهد يزن، ثم همّ بالرحيل، فأعطاه مالك الرسالة، خرج معه إلى الباب.

رحل يزن إلى حيث خيمة ديمة، أما هو فتقدّم إلى طرف السهل، تأمل المدينة الثائرة، ابتسم بتهكم، فشتّان بين مراقبته لها من قصره، وبين الحال الآن، نخر البرد عظامه، فوضع يديه في جيبيه، وعقله مشغول في هذه المدينة التي منحته هوية في عقده الثالث من العمر.

اقتربَ يزن من خيمة ديمة، نادها بصوتٍ منخفض، فسرعان ما خرجت إليه، رفض أن يدخل إلى الخيمة وفضّل المشي معها في السهل الواسع، حدّثها عن عائلته، كان يرغب بالحديث والثرثرة، فتحدّث عن صبا وحنانها، عن الحارة، عن المدينة، عن الحرب، عن الحاجز، عن كل شيء، ثم ختم ثرثرته بقوله:

- يعتقدون أن الوطن قد باتَ وليمة يقتسمونها بعد التحرير.
- الخيانة ليست في الجبهة فحسب، بل أحياناً تكون في المناصب التي توزَّع على حساب الدماء.

ثم نظرت إليه، أكملت وكأنها تجلده:

- ما أصعب أن ترى من قاتلَ في صفّهم يوزّع اليوم شهادات شرف، والأكثر إيلاماً أن ترى القاتل يضع أكاليل الزهور على ضحاياه.

رجع خطوة إلى الخلف، اتسعت عيناه، ما هذ الهراء الذي تتفوّه به، فسألها:

- إلامَ تلمّحين؟
- في زمن الحرب يا يزن كنّا نعرف عدوّنا، لكن الآن اختلطت الوجوه، فأصبح الخائن يتحدّث باسم الوطن.

أشاح بوجهه بعيداً عنها بعد أن زفر بغضب، فحاولت امتصاص غضبه، حين قالت:

- حدّثني عن مالك.

استرعت انتباهه، فالتفتَ إليها ثانية، ثم إلى مالك الذي مازال واقفاً عند أطراف السهل، ينظر المدينة من أسفل.

- أرغب في سماع قصّته يا يزن.
- تعالي نجلس على تلك الصخرة، لأن حكايته طويلة جداً.

جلس وإياها على صخرة أمام المخيّم، حكى لها حكاية مالك كلّها، شعرت أن هذا الرجل يشبهها في آلامها، فهو أيضاً حمل هموم المدينة كلّها.

تركها يزن، بعد أن ودّعها، ثم رحل إلى حيث أخوه، وقف جواره قليلاً، ثم صافحه ونزل إلى المدينة، بينما ديمة ظلّت تتابعه بعينيها حتى غاب عن ناظريها، فمشت على استحياء حتى وصلت إلى مالك، تأملت لحيته الطويلة، وكأنه قصد أن يطيلها على هذا النحو.

انتبه إلى كائن فضولي يحدّق به، استدار إليها، تأفف، ثم استدار مرّة أخرى إلى المدينة، بينما لم تردعها نظراته الزاجرة، بل اقتربت منه ووقفت جواره، ابتعد عنها قليلاً، إنه يكره الغرباء، لقد عرف أنها ديمة _خطيبة أخيه_ ومع ذلك لا يريد أناساً جدداً في حياته، بينما قالت بعد أن استجمعت شجاعتها:

- أتدري أنك تشبه المدينة في قوّتها وضعفها؟

نظر إليها بطرف عينه، فأكملت:

- تشبه عنادها حين قاومتْ وتألّمتْ وصبرتْ، ولم يكن جوارها أحد، لكنها ضعفت حين هجرها أبناؤها.

لم يردّ عليها، وإنما اكتفى بالصمت، فتابعت:

- لكلٍّ منا نقاط ضعف وقوّة، قوّتك أن تكون أنانياً، فخذ حقّك من الحياة التي أضعفتك.

اتسعت عيناه، نظر إليها بقوّة، فعادت إلى الخلف، وضعت يديها أمام وجهها، وقالت بابتسامة:

- لكن لا تعد إلى الشيطان، بل اذهب إلى المدينة.

وأشارت إلى الأسفل، ثم أكملت:

- هناك حياتك، لا تتركها لهم، وتمت وحدك هنا، بلا رفيق أو صديق، لا تكن جباناً، ودافع عن حقّك.

أخيراً تحدّث:

- أنت أكثر جرأة مما وصفكِ يزن
- يزن لم يتعرّف إليّ جيداً
- وهل تعرفتُ إليكِ إلى الحدِّ الذي أقيّمك فيه من أول لقاء، وأخبرك بشيء لا يعرفه هو.

شعرت بالخجل من اقتحامها لحياته الهادئة، لقد ظنّته وديعاً كيزن، لكن الذي أمامها رجلاً ذكي، لئيم، لا يحب أحداً.

اعتذرت منه، وهمّت بالمغادرة، فأوقفها قائلاً:

- يا آنسة.

استدارت إليه، فأكمل دون أن يلتفت إليها:

- إن حصل مكروه ما ليزن ذات يوم، فتأكّدي حينها أنكِ ستواجهين الشيطان بذاته.

ثم التفتَ إليها، وأشار بسبابته إلى عينيها، وأكمل:

- ما رأيته في عينيك عند ذكر يزن لم يكن لمعة حب، بل وعيدٌ بشيء لا أحبّ أن أذكره.

بلعت ريقها، شحب لون وجهها، أومأت برأسها، وفرّت هاربة إلى خيمتها من غضب الشيطان.

مرّت الأيام رتيبة دون أن تغيّر ما في القلوب، وكأن الزمن نفسه يراقب الأفئدة وهي تتقلّب دون أن يتدخّل.

ازداد تعلّق يزن بديمة، الجميع رأى عشقه الماثل في التفاصيل الصغيرة، في رؤيتها، في تردده حين ينهي أي حديث معها، وفي الحديث عنها.

لكن ديمة كانت تخشى هذا الحب أن يضعف قلبها الذي أحكمت إغلاقه قبل تفكيرها في الارتباط، إذ تخشى على فؤادها من الانجراف نحوه فيربك كل

خططها، ومع ذلك تجاريه أحاديثه، فتردّ عليه بلطف، وتبتسم بقدر ما يسمح به عقلها، وحين تشعر أن حديثه بدأ يصل إلى قلبها تنسحب.

كانت تقول لنفسها كل ليلة "لا مكان للحب الآن"، لكن الفؤاد يرتجف كلما سمع صوته، أو ذُكِر اسمه.

وبعيداً عن هذين العاشقين كانت صبا تخوض معركة من نوعٍ آخر، عيناها لا تفارقان عمر، تراقب اهتمامه المتزايد بسارة، هذا الاهتمام المبالغ به الذي يُكاد أن يفضحه أمامها.

كانت تراه كلّما التفتت نحو سارة دون قصد، كيف يصمت كلما اقتربت منه، وكيف يتهرّب منها كلما سألته عن سبب شروده المتزايد، ترى بأم عينها حبّها وزوجها يغازل امرأة أخرى، ولم تكن أي امرأة _زوجة ابن عمه_ تنظر أحياناً إلى سارة، وتفكّر "لم انجذب إليها وتلك لا تعيره أدنى اهتمام".

هل شعرت سارة بذلك فزادت عزلتها في غرفتها وفضّلت المكوث بعيداً عنهما.

كانت محقّة في هذا السؤال الذي لم تلقَ له جواباً، فسارة فعلاً اعتكفت في غرفتها بعد أن شعرتْ بنظرات عمر الراغبة، ومع ذلك تبعد الفكرة بيدها كأنها ذبابة مزعجة، تشعر أحياناً أنها تتوهّم، لكن حين تضع رأسها على الوسادة تتراءى لها ذكريات النهار كله، وعيناه الملاحقة لها باستمرار، ومع ذلك تمنّي نفسها أن تكون مجرّد أوهامٍ في عقلها.

وفي الصباح جلست أمام النافذة تحتسي قهوتها، تتظاهر بالهدوء، لكنها كلّما نظرت إلى عائلة عمر سرت في روحها رعدة غريبة فارتجفت حزناً على عائلة ربما تتفكك بسببها.

ترددت كلمات عمر في ذهنها حين صرخ في وجهها قبل يومين "لن أسمح لأي أحد بجرحكِ بعد الآن، أعتقد أنّ من الأفضل لكِ الانفصال عن مالك للأبد".

ارتشفت رشفةً من فنجانها، لم تصدّق حينها ما سمعت به، لقد عاشرت عمر عاماً كاملاً، كان رقيقاً أحياناً، حازماً أحياناً أخرى، أحياناً بارداً، وأحياناً دافئاً، ومع ذلك شعرت بأنه أخ كبير، لم تتوقع أن تقع في فخّ عشق لا ترغب فيه.

شعرت بالغضب... فأغلقت نافذتها بإحكام، جلست على سريرها تفكّر في حلّ يرضي ثلاثتهما، لن تجرح صبا بعد أن آوتها في بيتها، لن تكون سبباً في دمار هذه العائلة المتماسكة.

كلماتها تتخبّط في عقلها كريح عاصفة، وكل فكرة جديدة يطرحها عقلها تزيد من عزلتها.

شعرت بالذنب يثقل صدرها، لا ترغب في إيذاء صديقتها، فتزيد ألمها وتحوّل حياتها إلى متاهة من أوجاع، لكنها عاجزة عن الدفاع عن هذا البيت، فهي أيضاً شعرت بخيبة أمل لم تتوقعها من شخص ظنّته سنداً لها.

وقفت... فتحت النافذة مجدداً، لمحها أولاً، لوّح لها بيده، ثم سرعان ما أخفضها حين لمح صبا قادمة نحوه، أغلقت النافذة بغضب، لقد حدّثها مالك عن حبّه لصبا، فكيف يخونها بتصرّفاته الخرقاء؟

كل نظرة منه، كل تلميح، كل محاولة منه لإقناعها بالطلاق هي بمثابة الصاعقة التي ضربت قلبها الرقيق.

لم تفهم كيف يمكن لمن كان حبيباً لأخرى ذات يوم أن يقولها بصوته الهادئ "أعتقد من الأفضل لكِ الطلاق، لتصيري حرّة، فتنجلي كل القيود عن قلبك".

لقد اتخذت قرارها، لن تغادر غرفتها طالما هو في البيت، وحين يخرج ستجلس مع صبا، ولن تحاورها في هذا الموضوع إطلاقاً.

لكن صبا تعرف كل شيء، فتجالس زوجها بقلبٍ مقهور، وتتحدّث وإياه وهي تدرك أنها ما عادت تسكن قلبه.

كانت تشعر بخيانته لها، بفكره... ولو لم يخنها جسدياً، كانت ترى نظراته لامرأة غيرها، نظرات مشبعة بالحنان الذي فقدته منه.

فهي بسببه تمارس الحيرة كعادة رياضية صباحية، تريد إنقاذ بيتها دون التسبب بضرر لأحد، ودون أن تُظهر ضعفها لعمر.

وفي لحظة حسم، قررت التوجّه إلى يزن، فهو أملها الوحيد في إبعاد سارة عن قلب عمر.

ارتدت ثيابها بعد مغادرة زوجها إلى عمله، وابنها إلى مدرسته، ودون أن تلتقي بسارة وتُعلمها برحيلها غادرت المنزل.

حين وصلت إلى بيت والدتها وطرقت الباب وجدت يزن على أتم الجاهزية للذهاب إلى عمله، استقبلها بحفاوة، هو ووالدتهما، وحين همّ بالذهاب استوقفته للتحدّث معه بأمرٍ هام.

كان الأمر شاقاً على روحها، تخشى أن يفهم يزن السبب الحقيقي وراء طلبها، تركتهما رندة وحيدين، بينما كانت تفرك يديها في الصالة بتوتّر، فقطع يزن لحظة الصمت بسؤاله:

- ما الذي ألمَّ بكِ لتأتيني في هذا الصباح الباكر؟

نظرت إليه بحيرة من أمرها، لكنها سرعان ما استجمعت شجاعتها، وقررت أن تخبره بما في جعبتها دفعة واحدة.

- أريدك أن تُحضِر سارة إلى هنا، أعتقد أنها ستنسجم مع والدتي، وستحبّان بعضهما.

نظر إليها دَهشاً من طلبها الغريب، فسألها بتوجّس:

- ما الذي حدث؟

أشاحت وجهها عنه، ثم قالت:

- لا شيء مهماً يستدعي قلقك.

ثم نظرت إليه، وأكملت:

- هل تستطيع ذلك؟

صمتَ قليلاً يفكّر في إجابة دبلوماسية، ثم قال:

- لا... لا أستطيع، بيتي صغير يا صبا، فأين ستمكث؟ لا تنسي أني مقبل على الزواج.

نظرت إليه تستعطفه بنظراتها الحزينة، تأفف يزن واعتمرَ قبعته، اتجه نحو الباب، ثم استدار إليها وقال:

- أنتم جميعاً تفكّرون في أنفسكم فقط، اعذريني يا صبا... هذه المرّة سأكون أنانياً، أريد بناء مستقبلي مع زوجتي، وبيتي كما تعرفين بالكاد يسعنا.
- أعلم ذلك... أعلم أن كل واحد منكم له قلبه ومسؤولياته، شكراً لك على كل حال.

أومأ لها برأسه، غادرها وهو يفكّر في طلبها، لقد جالت في عقله كل الأفكار السيئة، وكلّها صبّت في نفس الحفرة أن عمر قد مال قلبه إلى زوجة ابن عمه.

في المساء التقى يزن بديمة، فتمشيا في شوارع المدينة حتى وصلا إلى الحاجز الذي عمل عليه جندياً لعدّة أعوام، هذا الحاجز الذي شهد كثيراً من المعارك والآلام، وكأن الحديد البارد صار شاهداً على دماء وصرخات لم تنتهِ بعد.

توقّفت ديمة أمامه، نظرت إلى آثار الرصاص، كأنها تحكي قصّة المدينة كلّها، قالت بألم:

- كم من دمٍ سال هنا، وكم من أرواح بريئة استُهدفتْ بلا سبب، كم من عائلات انهارت هنا... عند هذا الحديد البارد.

نظر إلى آثار الحاجز، وكأنهم تركوه هنا ليذكّروا العالم بأنه كان شاهداً على اعتقالات الكثير من شباب المدينة، قال بصوتٍ هادئ:

- خلال وجودي هنا لم أجرح أحداً، ولم أعتدِ على أحد، حاولتُ حماية نفسي والآخرين بقدر ما ابتعدتُ عن إيذاء غيري.

نظرتْ إليه، ثم قالت بشيء من الشك:

- وهل أصدقك؟ كنت كل يوم أرى وجه المدينة يتلطّخ بالدم، كل يوم كنتُ أسمع عن معركة جديدة تُقام هنا، عن أشخاص اختفوا في ليلٍ طويل، كيف لأحد يملك القوّة أن يقف هنا ولا يمسّ أحداً.

ابتسم لها بخفّة ولم ينفِ الواقع، فتحدّث بهدوء:

- لم أقل إن الحرب لم تكن هنا، ولم أقل إن الدماء لم تُسفك، لكنني حاولت أن أبقى إنساناً وسط هذا الصخب، فلم أرفع سلاحي على أحد، ولم أسمح لنفسي أن أكون سبباً لسفك الدم.

أمالت ديمة رأسها قليلاً، كأنها تتلمّس صدقه، ثم قالت بصوتٍ مرتجف:

- ولكن هؤلاء الذين سقطوا هنا كلّهم... كيف يمكن أن أستثنيك من دمهم؟ كيف أصدّق أن قلبك ظل صاحياً؟

اقترب خطوةً، تلمّس الحديد البارد بيده، ثم قال لها:

- ليس كلّ من وقف هنا جبّاراً، أحياناً القوة الحقيقية تكمن في حماية نفسك والآخرين دون قتل أحد، أحياناً الشجاعة يا ديمة هي الابتعاد عن القسوة.

اقتربت منه، وقالت بألم:

- أنا بين نارين، أحياناً أشعر بصدقك، وأحياناً أخشى أن تكون كذبة كبيرة، قلبي يصدّقك، لكن ما رأته عيناي ذاك اليوم يرفض تصديقك.

نظر إليها بحيرة، ثم سألها:

- عن أي ليلة تتحدّثين؟

رفضت الإجابة، وتركته عائدة إلى المخيّم، أسرع إليها ومشى جوارها، لحظات صمت قصيرة غرقا بها قبل أن يقول:

- أحياناً الحقيقة يا ديمة بسيطة جداً، فقط عليكِ الوقوف أمام ما هو مؤلم لتعرفي من الصادق، ومن ليس كذلك.
- أنا خائفة... خائفة أن أصدّق وأخطئ، أو أشكّ فأفقد فرصة للثقة.

لا يعرف عما تتحدث، أحياناً يشعر أنها كتلة من ألغاز متحرّكة، كلما حاول فك شفراتها فاجأته بالمزيد من الغموض، لذلك عليه أن يتريّث قبل التقدّم بخطوات جديدة.

أوصلها إلى المخيّم، انتظرها حتى دخلت خيمتها، ثم استدار إلى كوخ أخيه.

طرق الباب ودخل بعد أن فتحه مالك، كان يطهو الطعام.

جلس يزن على الكرسي، وما إن مرّت بضع دقائق حتى بدأ يثرثر عن المدينة، هذه المرّة لم يطلب منه العودة إليهم، لأنه أدرك أن عمر لن يستقبله، لذلك تجاهل نداء روحه، وأكمل حديثه عن المدينة وأحوالها، ثم صدح صوته عالياً:

- لقد تعاونت المنطقة الجنوبية مع العدو، لقد رفضوا الحكم الجديد، فهو لا يوافق نظامهم الفاسد، ورفضوا كل محاولاتنا للحل، حتى المدينة تعاونوا مع العدو لقصفها، لقد سجّل التاريخ خيانتهم، ولن تمحى من صدورهم، كأنهم أرادوا محو المدينة من الوجود، ولسخرية الأقدار إنها مدينتهم أيضاً، ربما كل شيء صار نتيجة حسابات خاطئة، وخيانة بعض من كنا نثق بهم.

أطفأ مالك النار، ثم سكب القليل منه في الصحن، وضعه على الطاولة، ومن ثم طلب من أخيه مشاركته الطعام، لكنه رفض، وأكمل ثرثرته عن أحوال المدينة، فقال مالك:

- فهل هذا يعني أن الوضع أسوأ مما كنا نتخيّله؟
- ليس كذلك، لكن المدينة أصبحت مسرحاً لكل شيء، لكل صراع ونزاع وانتقام، ونحن نعيش داخل هذا الصخب... مع الأسف.

ثم سأله فجأة، وكأنه لا يرغب في الحديث مرّة أخرى عن مصائب مدينته:

- هل هناك رسالة تودّ إرسالها الليلة؟

أومأ برأسه وقال:

- أجل، لكنني لم أكتبها بعد، هل تنتظرني ريثما أكتبها؟

وقف منتصباً ومشى باتجاه الباب، ثم قال:

- إذن سأنتظرك في الخارج ريثما تنتهي.

وقف مالك، اتجه إلى الطاولة بعد خروج أخيه، أمسك القلم، وبدأ يكتب:

سارة...

أكتبُ إليكِ وأنا مُثقلٌ بالاشتياق، وبالألم الذي لم أستطع مشاركته مع أحد، تمنيتُ لو كنتِ بجانبي، لتشعري بما شعرت، لتفهمي كل لحظة من اللحظات التي قضيتها بعيداً عنكِ، لكن قلبي دائماً معكِ، نابض باسمك، متيّم بك.

سارة...

أكتب إليك الليلة بقلبٍ أثقلته الحكايات، وكلمات تتزاحم كي تخرج، لا طلباً للصفحة البيضاء، بل طلباً لصدرك الذي كان يوماً موطني الوحيد.

سارة...

تعرفين نصف قصتي، أما نصفها الآخر فقد ظلّ حبيس صدري، لأنني كنتُ أخشى الإفصاح عنه.

سارة...

حين أخبرتك أن الطبيب جمالاً سعى لتغيير وجهي لم أخبرك أنه ليس عملاً خيرياً، ولا طبيباً رحيماً كما أظهرته الصحف، بل عرضني

مادة لخطاباته ومسيرته العلمية، كنتُ له التحفة التي سيقدّمها لكل مؤتمر دليلاً على عبقريته.

وكأنه يقول أمام الناس "انظروا... هذا كان مشوّهاً، وأنا صيّرته كما ترون".

ولو رأيتِ نظرات الحاضرين يا سارة... كانت تشبه السكاكين.

كانوا يفتّشون في وجهي عن عيبٍ نسيه.

كانوا ينتظرون مني إخفاض رأسي خجلاً، أو الاعتذار لأنني خُلقتُ هكذا.

وأجلس بينهم أتلقّى كلماتهم صامتاً وأشعر أنني لستُ إنساناً، بل جثّة تشرح أمام جمهور، كل همّه التصفيق.

وكان الطبيب يقف قرب الشاشة يعرض صور ""ما قبل"" ثم يُشير إليَّ وهو يبتسم، والآن شاهدوا ما صنعت.

كنتُ أبكي من الداخل يا سارة.

أبكي كما يبكي طفلٍ في غرفة مظلمة.

أبكي لأنهم حوّلوني إلى عرضٍ متنقّل... عرض بلا كرامة... بلا مشاعر... بلا اسم.

حين وقفتُ أمام الطبيب أول مرّة ظننته سيعيد إليّ جزءاً من ملامحي... لكنه لم يفعل.

أعاد إليّ قيداً جديداً، قيداً لا يُرى، لكنه أكثر قسوة من الحديد.

كنتُ أرافقه إلى المؤتمرات كمن يُقاد إلى منصة إعدام، وكأنني تجربة مخبرية، لا إنسان، وكأن وجهي القديم ذنب، ووجهي الجديد فضل منّة يجب عليّ شكره أمام الغرباء.

كانوا ينظرون إليّ كما يُنظر إلى تمثال صنعه أحدهم بافتخار، لكن التماثيل يا سارة لا تتألم، وأنا أتألم.

أتألّم وأنا أسمع تصفيقهم الذي يقتلني أكثر مما يحييني.

عامان وأنا أساق كالأشباح من مدينة إلى مدينة، من قاعة إلى أخرى، من فلاش كاميرا إلى منصة.

عامان وأنا انتظر لعل الباب يفتح، لعل الحياة تعود، لعل انعكاسك يظهر في المرآة بدلاً من وجوههم الغريبة.

ولم أفعل كل ذلك إلا لأصبح جديراً بكِ.

كنتُ أظنّ الجمال سيعطيني الحق في حبّ امرأة مثلك، لكنهم سرقوا حلمي يا سارة، حوّلوه إلى سجن.

عامان مرّا وأنا أقدّم نفسي قرباناً لغروره، أمشي بجانبه كعابر بلا ظل.

عامان وأنا أعود إلى غرفتي كل ليلة وأفكّر "هل هذه الحياة التي أردتها كي أقترب من سارة؟ هل يستحق وجهٌ جميلٌ روحاً محطّمة؟"

لكن في لحظة يا سارة تحوّل الوجع إلى جرأة، لم أعد قادراً على الاحتمال، ولم أستطع السماح له أن يدوس على وجعي أكثر من ذلك.

ففي ليلة باردة أدركتُ شيئاً واحداً، لو بقيتُ هنا يوماً واحداً... لو بقيتُ هنا يوماً آخر... سأموت.

ليس موتاً جسدياً، بل موتٌ أشدّ قسوة (موت الروح).

في تلك الليلة اختفت الرحمة من قلبي، كل شيء بدا واضحاً، واضحاً حدّ الوحشة.

دخلتُ غرفته وهو نائم.

كان وجهه هادئاً، وكأن الأيام لا تقسو على أمثاله، وكل ما فعله بي كان مجرّد إجراء طبي.

وفي تلك اللحظة لم يعد في داخلي شيء يخاف.

لا خوف...

لا صبر...

لا احتمال...

وقفتُ عند رأسه، وهمستُ له "هذا حقي... لا ثأري".

سألت نفسي: هل أستحق أن أعود خالي اليدين؟ هل أتركه ينعم بنومٍ هادئ بينما حُرمتُ منه عامين، والجواب صرخة صامتة في داخلي "لا".

ربطتُ معصميه، أوثقتُ الحبال جيّداً، لا رغبة بالأذى، بل رغبة بالعدل، ثم ربطتُ قدميه.

حين فتح عينيه ووجدني أمامه، بدا وكأنه يرى شبحاً.

صرخ... وسأقول الحقيقة "صرخته لم تؤذِني... بل حررتني".

رأيتُ في عينيه شيئاً لم أره يوماً.
رأيتُ ضعفه...
رأيتُ نفسي في مرآة مقلوبة...
أنا الذي كنتُ ضعيفاً طوال الوقت.
أنا الذي تحمّل ما لا يُحتمل.
أنا الذي لم أعد قادراً على السكوت.
أخذتُ أمواله أمام عينيه... أمواله التي جمعها من عرض وجهي كسلعة، التي جنى نصفها من المتاجرة بجثتي الحيّة، التي ابتسم وهو يسرقها من ألمي، والتي جمعها على حساب وجعي.
أخذتها لأبني بها شيئاً يشبهني، يشبه حلم الطفولة، يشبه البيت الذي أردته لك.
وحبسته في قبو القصر الذي بنيته من تلك الأموال، ربما يعيد إليه كل ما فعله، حتى إني فعلتُ أقلّ بكثير مما فعله بي، نسخة عادلة من العقاب، نسخة لا دماء فيها، ولا تعذيب، بل مجرّد مرآة.
ربما ذكّره القبو أن الظلم لا يُمحى بالوقت، بل يعود لصاحبه ولو بعد حين.
لم أمسّه بأذى.
لكنني جعلته يتذوّق ما تذوقته على يديه، جعلته يشعر بعلقم عامين دفنتُ فيهما صوتي وملامحي وأحلامي.
وأقولها لكِ دون خوف أو مواربة:

لم أندم لحظة...

ولو عاد الزمن، لفعلتُ الأمر ذاته... بالدقّة ذاتها، بالقسوة ذاتها، بلا رعشة في يدي.

لأنكِ أنتِ يا سارة... أنتِ وحدكِ تستحقّين ذانك العامين.

كنتِ تستحقين أن أعود إليكِ رجلاً كاملاً. لا ظلاً يعرضه طبيب أمام الناس.

وعدتُ إليكِ يا حبيبة الفؤاد... فعودتي إليكِ ليست هرباً، بل نجاة.

كنتِ الطريق الذي قادني من الظلّ إلى النور.

سارة...

أنا لا أكتب هذا الكلام لأسوّغ نفسي.

ولا لأطلب غفرانك، أو أحتمي بجناحك.

أكتب لكِ...

لأن قلبي الذي عادت له الحياة بين يديكِ، يرفض أن يبقى ثقيلاً عليكِ.

أكتب لكِ...

لأن كل ما فعلته لم يكن ظلماً... كان محاولة أخيرة للنجاة.

وأنا نجوت... حين وصلتُ إليكِ.

مالك

خرج مالك من كوخه بعد أن أنهى كتابة الرسالة، وجد يزناً يقف مع ديمة عند طرف السهل، اقترب منهما ببطء وكأنه شاخ في عام واحد، مدّ يده بالرسالة لأخيه، ثم غادرهما دون أن يلقي السلام على ديمة التي فوجئت ببروده، على أنها تعلم أنه شخص مملّ كما وصفته، لكن ليس لدرجة أن يقترب منها ولا يعيرها أدنى اهتمام، كأنها كائن من سراب.

أما يزن فودّع ديمة، ولم يعتذر عن برود أخيه ووقاحته، وكأنه يخبرها أن عليها أن تعتاد الأمر.

وصل يزن إلى الحارة، وجد عمر ما يزال جالساً مع رفاقه، يستدفئون بنيران قد أشعلوها عند الحاجز، ألقى السلام، سلّم الرسالة لابن عمه، وغادر فوراً.

ابتعد عمر عن أصدقائه، فتحها، قرأ فحواها بجمود قاتل، مع أنه أول مرّة يعرف تفاصيل الحكاية، ومع ذلك لم يتأثّر إطلاقاً، وضع الرسالة في جيبه بلا مبالاة.

حين وصل إلى البيت، ألقى السلام، ودخل غرفته، أودعها مع أخواتها في الدرج ذاته، ثم خرج إلى باحة الدار.

لقد رأت ما بيده هذه المرة، ورأته يخفيها في الدرج، ظلت الأفكار تصدح في رأسها حتى أشرق صباح يومٍ جديد، لم تنم فيه جيداً.

وبعد خروج زوجها إلى عمله، بحثت عن مفتاحٍ آخر لدرج الكومدينة، فتحته وهي تخشى أن تصادف شيئاً يؤلم قلبها، لكنها تشجّعت وأدارت المفتاح في القفل، حملت الصندوق بين يديها، وحين فتحته شهقت من كميّة الرسائل الموجودة بداخله.

جلست على السرير وبدأت تقرأ...

كل كلمات مالك كانت تجلدها بسياطٍ من ألم، لقد عاشت معه جزءاً صغيراً من آلامه، لم تكن تعلم أن الآلام الحقيقية ما أخفاها عنها.

أعادت الرسائل بعناية إلى الصندوق، ثم أودعته في الدرج، وأعادت إغلاقه بالمفتاح.

فكّرت قليلاً في الأمر، ثم خرجت من غرفتها وأرسلت رسالة من هاتفها إلى يزن تطلب فيها أن يسلّمها رسائل مالك بنفسه.

دُهش عمر من طلبات صبا الغريبة، ولكن صمتَ، فالأمر برمّته لا يعنيه، فما يشغل عقله الآن غموض ديمة، وابتعادها عنه في بعض الأحيان.

كانت أروقة المشفى الألماني في برلين تضجّ بصراخ ولاء التي تقبض على غطاء السرير بقوّة.

صرخاتها تتردّد في الممرات، ومجد ووالدتها يحاولان تهدئتها، فساعة ولادتها قد أوشكت، والطبيبة تحاول مساعدتها، عسى أن تكون ولادتها طبيعية.

صرخت بصوتٍ متقطّع:

– يا الله... يا الله... ساعدني على التخلّص من هذا الألم.

أخرجت الطبيبة مجد ووالدتها التي جلست تدعو الله في سرّها بتيسير أمر والدتها، بينما مجد كان يروح ويجيء والعرق البارد يتصبب من جبينه.

أما في الداخل... فكان أنينها يعلو أحياناً، وأحياناً يتحوّل إلى صرخات تمزّق قلب مجد ووالدتها.

أمسكت القابلة بيدها وقالت:

- تنفّسي بعمق، لقد أوشكَ الطفل على الخروج.

صرخت مرّة، ثم ثانية، ثم ثالثة، صرخة طويلة تحوّلت في نهايتها إلى بكاء حار.

في هذه اللحظة تحديداً تمنّت أن تكون بين عائلتها، وتعود إليهم وبيدها مولودها الجديد، لكن الحلم ظلّ حلماً لها ما دام زوجها يرفض العودة.

وفي اللحظة نفسها انطلقت صرخة المولودة، لم تمدّ ولاء يدها إليها فقد كانت مستنزفة، جسدها يرتجف بقوّة، أغمضت عينيها كأنها تنشد الراحة بعد ولادتها المتعسّرة.

حملت الطبيبة "الصغيرة" وخرجت إلى مجد ووالدتها، حملها بيدين مرتجفتين، ثم أعطاها لزوجة عمّه التي حملتها ولسانها يحمد الله على نجاة وحيدتها وطفلتها، فيما دخل مجد إلى زوجته للاطمئنان عليها.

نظرت إليه، ثم قالت بصوت متعب:

- كنتُ أتمنى لو حدث هذا في مدينتنا، وسط أناسٍ نعرفهم.

أمسك بيديها، ثم قال:

– سنعود يوماً ما... لكن ليس الآن.

أومأت له وابتسمت، ثم غفت بعد فترة قصيرة، في هذه الأثناء توالت الاتصالات من المدينة، كلهم يباركون له، لكن حين سألوه عن اسمها، سكتَ هنيهة، فهو لم يفكّر أن يضع لها اسماً، لكنه لا شعورياً نطق باسم "صبا" أخته الكبيرة، التي رعته كما رعت يزن ومالك أيضاً، صبا التي تمنح الجميع حنانها دون استثناء، دون انتظار المقابل.

سعدت صبا لهذا التقدير من أخيها، وتمنّت أن تكبر الصغيرة في المدينة، وتحديداً في بيتهم الكبير.

بعد إنهاء صبا اتصالها مع مجد تناست حزنها قليلاً، لكن سرعان ما رأت سارة تجلس تحت شجرة التين عارية الأوراق، ويوسف يجلس جوارها يمسح دمعتها، عادت بها السنوات إلى الماضي البعيد، حين كان مالك يمسح دمعتها ويحتضنها في كل مرّة يراها تبكي، اقتربت منهما، داعبت شعر صغيرها، ثم جلست جوارهما، قالت:

– لمَ لا تمنحينه فرصة أخرى؟

نظرت إليها سارة قليلاً، ثم عادت بنظرها إلى الأرض، وكأن الإجابة مكتوبة بالأسفل، ثم أجابت بعد صمتٍ حيّر صبا:

- لو كان الأمر بهذه البساطة، لفعلتُ ذلك من قبل.
- أعرف أن جرحك منه ليس سهلاً، وأعرف أنكِ لم تنسي... لا ألومك، لكن مالكاً ندم يا سارة، وندمه صادقاً.

هزّت سارة رأسها ببطء، ثم شبكت يديها ببعضهما، وقالت:

- وما يفيدني ندمه! العودة صعبة يا صبا، وأنا... لستُ متأكدة أنني قوية بما يكفي لأواجهه.

تنهّدت صبا، ثم قالت:

- وإلى متى ستعيشين معلّقة هكذا؟ خائفة من اتخاذ خطوة نحو أي جهة، خائفة من البقاء هنا... خائفة من العودة إليه.

نظرت إليها سارة، وكأنها فهمت ما ترمي إليه صبا، لقد أشعرتها كلماتها بأنها دخيلة على هذه العائلة، فقالت بارتباك:

- البقاء هنا... يُشعرني أنني أتعدّى على حياة غيري، أنا ما جئتُ لأخرب على أحد.

وضعت صبا يدها على يد سارة، وقالت بابتسامة نقية:

- وجودك هنا ليس خطيئة، ولا هو تهديد لأحد، لن أسمح لكِ أن تشعري بذلك حتى لو لم تقولي حرفاً واحداً، أنتِ صديقتي يا سارة قبل أن تكوني ضيفة في بيتي.

أرادت سارة تغيير هذا الحديث المرهق لها، فقالت:

- إن عدتُ إلى مالك، فكيف سأنظر إلى نفسي؟ مازال في قلبي شيء يرفضه، وشيء آخر يريده. أنا بين نارَين يا صبا... نار الحاضر، ونار الماضي.
- لكن بين النارين هناك حقيقة واحدة، وهي أن مالكاً يحبّك، ولن تجدي أحداً يحبّك بهذه الطريقة، لا الآن، ولا بعد سنوات.
- ولكنني لا أريد أن أُخدع مرّة أخرى.
- وأنا لا أطلب منكِ أن تثقي به فوراً، اطلبي منه أن يثبت نفسه، اطلبي منه أن يتغيّر. إن عاد إليكِ كما كان... فاتركيه، وإن جاءك مختلفاً... فاستقبليه.

انسكبت دمعة من عين سارة، مسحتها بظاهر كفّها، ثم قالت بصوتٍ مرتجف:

- أخاف العودة إليه الآن، فما زلتُ أرتجف من ذكرى ما فعل.
- الغضب لا يمنع الحب... وارتجافك ليس ضعفاً... إنه أثر الجرح، ومن سبّب الجرح... فقد يكون وحده القادر على تضميده.

نظرت سارة إلى الأرضِ قليلاً، ثم رفعت رأسها، وقالت بصوتٍ أقرب إلى اعتراف غير مكتمل:

- أحتاج وقتاً لأعرف إلى أين أميل.
- خذي وقتك... لكن لا تغلقي الباب بينكما، اتركيه مواربا.

أومأت سارة برأسها، وكأن كلمات صبا أعاد إليها شيئاً من الحنين إلى مالك.

جلست ديمة على حصيرة قديمة تستمع إلى عتاب والدتها، فيما شردت في يزن وعشقه الجارف لقلبها، انتبهت إلى صوت والدتها الصارخ وهي تقول بغضب:

- لقد طال الوقت يا ديمة، لا يمكن أن تعيشي مع هذا الظلام في داخلك، يزن يجب أن يعرف حقيقة مقتل والدك، عليكِ أن تخبريه كيف استقرّت الرصاصة الأخيرة في جسده، قبل أن يتحوّل شعورك بالذنب إلى سمّ يقتلك.

تأففت ديمة من كلمات والدتها، ثم قالت:

- وأنتِ تعتقدين أنني قادرة على مواجهته؟ ماذا لو... ماذا لو كان فعلاً هو من قتله؟ سأكرهه... سأكرهه للأبد... وسأندم لأنني اقتربتُ منه.
- الحقيقة يا ديمة... أفضل من بقائك سجينة الظنون والأوهام.

أغلقت ديمة عينيها تحاول حبس ارتعاشها الداخلي، تحاول مقاومة شعور الخوف الذي يغرق قلبها، ثم فتحتهما ببطء، وقالت بألم:

- أعرف أن الصمت يعذّبني أكثر من أي مواجهة... لكن قلبي... عقلي... لا يطيقان فكرة كوني مخطئة وأن يكون فعلاً قاتله.

ضمّتها أمها إلى صدره، فيما انهارت تلك باكيةً تَشتّتها، ثم قالت الأم:

- لكن لا يمكنك المضي هكذا، كل يومٍ يمر وأنتِ تتجنّبين المواجهة يزيد ألمك، ويكبر الغضب بداخلك، إن لم تفعلي شيئاً فستبقين حبيسة الأسئلة، حبيسة الغضب، وحبيسة نفسك.

ابتعدت ديمة عن صدر أمها، نظرت إليها بدموع انسكبت في قلب والدتها، ثم قالت:

- لكني لا أستطيع، لا أستطيع... تحمّل الحقيقة، حينها ستكون كابوساً وليس واقعاً.

ابتلعت الأم كلامها، لكنها لم تتراجع، ضغطت على كتف صغيرتها برفق، كأنها تقول لها "أنا معكِ، لكن القرار ملكك"، ثم قالت بصوتٍ حازم:

- في يومٍ ما ستواجهينه، اليوم أفضل من الغد، والغد أفضل من دفن نفسك في شكوكك، إما أن تعرفي الحقيقة، وإما أن تستمرّي في العذاب بلا نهاية.

تأملت ديمة وجه والدتها، تأرجحت عيناها بين الامتنان والخوف، كانت بين نارين: نار الخوف من الحقيقة، ونار الرغبة في التحرر من الألم الذي ينهش قلبها منذ عام.

عادت بنظرها إلى والدتها، ثم نظرت إلى الأرض، قالت وكأنها تهمس لنفسها:

- أقترب... لا أستطيع.

أبتعد... لا أستطيع.

كل خطوة تجاهه... كل كلمة... قد تغيّر كل شيء... تقتلني داخلياً.

وارتمت مجدّداً في حضن والدتها تبكي حبّاً قتلته بشكوكها ونار انتقامها.

أما في كوخ مالك المجاور للمخيّم، فقد كان نائماً بعمق قبل أن يتحوّل نومه إلى بوابة من جحيم لا يعرف الرحمة.

فجأة شعر بثقلٍ على صدره، كأن الهواء نفسه صار ضاغطاً، صرخات صغيرة ملأت المكان، صراخ ابنه الصغير اختلطَ بأصوات كبيرة تستغيث بلا جواب.

رأى القبو... ضيّق ورطب، والطفل بين يديه يرتجف، ثم فجأة وجد نفسه يضغط على رقبة الصغير بلا إرادة، رفض قلبه الأمر، لكن جسده تابع، سمع صوتاً قادماً من جدران القبو:

- أنت من فعل هذا... أأنتَ من قتله!؟

صرخ برعب، فضاع صوته بين انفجارات الحرب والقصف والدمار، كل وجع عاشه في حياته زاره في كابوسه ليخنقه أكثر.

ثم رأى نفسه يدفن الطفل فور ولادته، رأى عينيه مليئتين بالدموع، لمس وجهه، وهمس:

- سامحني... كنتُ جباناً... كنتُ أضعف من أن أنقذك.

فتح الطفل عينيه لحظةً قصيرةً، وصرخ بغضب:

– أنت قاتلي... من حطّم حياتي قبل أن تبدأ.

ارتجف مالك، ثم تعالت أصوات القصف، صرخات الضحايا، ضوء اللهب.

القبو تدمّرَ فوق رأسه، ثم ظهر وجهه أمامه... نفسه، لكن بعيني طفل صغير، نظرة صامتة، مليئة بالعتاب، ثم همس شبيهه:

– سامِح نفسك أولاً قبل أن تطلب منه مسامحتك.

استيقظ فجأة، نبض قلبه بسرعة، نظر إلى الملابس المعلّقة على المشجب، تنهد بألم، لقد انتهى الكابوس، لكن الواقع مازال يذكّره بأنه قتل طفله قبل أن يرى النَور.

اقتربَ يزن من عمر، لطالما أحبّ مجالسته، فهو لهم أشبه بأبٍ ثانٍ أو لنقل مثلٌ أعلى، لكنّه تغيّر كثيراً، ربما لأن الجميع رسم له صورة مثالية لرجلٍ لا يخطئ، لكن الأخطاء كلّها فيه، ومع الأسف كلها متوارية عن الجميع.

ترك عمر أصدقاءه، واقترب من يزن، تحدثا في أمور العائلة، لاحظ عمر الحزن الماثل في عيني ابن عمه، فسأله دون مواربة:

– تغيّرتَ كثيراً يا يزن، أحياناً أشعر أنني أجالس رجلاً بالكاد أعرفه.

تأمّل يزن عمق الحارة الممتد إلى الداخل، ثم قال:

– الحرب غيّرت فينا الكثير، مازلتُ أرى أثرها في كل زاوية، وكلّ شارع.

ابتسم عمر، ثم قال:

- الحرب كانت مرآة... كل من نظر فيها رأى وجه خطيئته، أنا رأيتُ نفسي فيها كثيراً، ولستُ فخوراً بما رأيت.

ظلّ يزن ينظر إلى بيوت الحارة العتيقة التي أنهكتها الحرب، يفكّر في غموض عمر، أحياناً يشعر أنه يفهم كلام الرجل الماثل أمامه، ثم يفاجئه بكلامٍ لم يتوقعه منه، فقال بعد صمتٍ قصير:

- أحرقتنا الحرب يا عمر بقدر ما أحرقتنا رغبتنا في الانتصار على بعضنا، كأننا قاتلنا بعضنا أكثر مما قاتلنا الأعداء، كل خسارة، كل دم، ناتجة عن غرورنا، عن فقدنا، وليس عن الحرب نفسها فحسب.
- جميعنا خرج من الحرب كما يخرج الجاني من الجريمة... حيّاً... لكنه لم ينجُ.

لم يرد عليه يزن، بل اكتفى بالتفكير في المدينة ورمادها، في الخسارة التي لم تترك أحداً إلا حطّمته، ثم قال بنبرة هادئة:

- كلّ منّا حمل جزءً من الحرب داخله، بعضنا حاول دفنها، وبعضنا الآخر خرج أكثر قوةً وصلابةً، لكن مهما حاولنا... فلن نخرج منها كما كنا قبلها، لم يخرج منها أحدٌ كما كان.

هزّ عمر رأسه، وعاد يحدّثه عن أهل الحارة ورفاقهما، ثم أستأذن يزن من عمر ليغادر إلى المخيم.

وصل إلى المخيّم، وجدها تُلاعِب الصبية الصغار، أخذها ونزل إلى المدينة، كان يحدّثها بحبٍّ ولوعة واشتياق، رسم لها مستقبلاً يجمعهما في بيتٍ صغير يضمّهما، ومعهما أطفالهما.

كان يرسم المستقبل، وكانت تعيد بناء الماضي، ومع الأسف... تقاطعت طرقاتهما قبل أن يصل.

أخذها بيده ونزلا إلى المدينة، تمشيا في شوارعها التي تحاول إعادة بناء نفسها من جديد.

وصلا إلى الحاجز، وقفت ديمة أمام الحديد البارد، ارتجفت يدها وهي تلمسه، بينما وقف يزن على مسافة قصيرة، يتفحصها بحذر، ثم سمعها تقول بصوتٍ مرتجف:

- كم من أرواح قُتلت هنا بدمٍ بارد!
  كم من أبرياء اعتقلوا بلا سبب!
  كم من أطفال فقدوا آبائهم... وكم من آباء فقدوا أبناءهم!

ردّ عليها بهدوء حذر:

- كل ما تتحدّثين عنه أعرفه... أعرف الألم الذي حملته المدينة، أعرف كل فقدٍ مرّتْ به.

التمعت عيناها بالدموع، ثم قالت دون أن تنظر إليه:

- هل تعرف حقاً؟ هل كنتَ هنا؟

هل كنتَ شاهداً على كلّ هذا؟ أم إنك مثل الكثيرين غائب عن الحقيقة، تتركها تحترق.

صمتَ قليلاً، تأمل شوارع المدينة الواسعة، ثم قال:

- كنتُ هنا... لكن ليس كما تعتقدين، لم أقتل أحداً، لستُ مسؤولاً عن الدم الذي سقط هنا.

لقد تركتُ الحاجز قبل إعلانهم انتهاء الحرب، لم أكن في تلك اللحظة.

تقدّمت ديمة خطوة نحو نهاية الحاجز، وقالت بقهر:

- أبي... كان يمشي هنا قبل إعلان انتهاء الحرب بدقائق قليلة، قُتل وآخر رصاصة كانت في جسده، كل شيء توقّف عنده، كل شيء لم يعد كما كان لنا.

ثم نظرت إليه وأكملت بصوت يرتجف:

- أريد معرفة الحقيقة... من كان مسؤولاً؟ من ارتكب هذا الذنب؟

اقترب منها محاولاً تهدئتها، ثم قال:

- يمكنك أن تسألي أي شخص كان قريباً من هذا الحاجز، أي شخص يسكن هذا الشارع، الحقيقة ستظهر لك.

ثم اقترب أكثر منها، وأكمل:

- أنا لا أكذب، لم أكن على الحاجز حينها، أعرف ألمكِ يا ديمة، وأعرف وجعك... لكن لا تُلقي اللوم عليّ بما لم أفعله.

ردّت عليه بنبرة ضعيفة، لكنها متقدة بالغضب الداخلي:

- لقد ضاع أبي... وكم من آخرين ضاعوا أيضاً، وكل شيء أصبح ذكرى مؤلمة، قلوبنا مازالت تنزف، فكيف يمكننا نسيانه؟

تقدّمت منه حتى كاد جسدها يلامس جسده، عيناها مليئتان بالدموع، عبثت يدها في حقيبتها، أخرجت سكيناً صغيرة، أمسكتها بين أصابعها المرتجفة، حين رآها ترفعها وتهمّ بالهجوم عليه، قفز إلى الخلف خطوة كبيرة، وصرخ بها:

- توقفي! ما هذا الجنون!؟

صرخت بقهر وهي تحاول طعنه مرّة أخرى، بينما تراجع بعيداً عنها:

- أريد معرفة الحقيقة، أريد أن أرى بأم عيني من دمّر حياتنا وقتل أبي.

ابتعد كثيراً عنها، ثم قال بصوتٍ غاضب:

- أخبرتكِ أنني لم أكن على الحاجز حينها، لم أقتل أحداً.

ماثلت صراخه بصراخٍ أشد:

- كيف أصدّق؟ كيف أصدق بعد كل ما رأيتُ من دماء، صرخات، اعتقالات لأبرياء لم يعد لهم وجود.

ابتعد يزن بضع خطوات حتى وصل إلى ناصية الشارع، مستوعباً أن غضبها ليس موجّها إليه فقط، بل لكل المدينة، ومن فيها.

- اسمعيني يا ديمة، أنا لستُ قاتل والدك، وسأقولها آخر مرّة، اذهبي الآن، ابكي، اصرخي، واسألي من تريدين... ستظهر حينها الحقيقة وتخبركِ أنني بريء من دم والدك وغيره.

تركها تلملم شتات نفسها الممزقة، رمت السكين، وجلست على الأرض تنتحب بألم.

- لا أحد يفهمنا... ولا أحد يشعر بما عانيناه، كل ما تبقى لنا هو الألم والذكريات والصمت.

حين رأته يغادرها، أدركت أنها خسرت حبّاً لا يعوّض. لقد رأت في عينيه الصدق، لم ترَ ارتباكاً أو خوفاً، ما رأته هو الصدق فقط.

نظرت إلى الحاجز نظرة أخيرة، شعرت حينها أن الحاجز لم يعد مجرّد قطعة حديد، بل شاهد صامت على وجع المدينة، كل خيانة، كل فقد، كل اعتقال، كل ظلم، وكل شيء لم يُروَ بعد.

أما يزن فمشى ببطء في شوارع المدينة، عيونه تتفحص الدمار من حوله، وأصوات الرياح تمرّ بين الأنقاض تهمس بأرواح ما عادت موجودة.

يداه في جيبَي معطفه، رأسه منخفض، كتفاه منحنيان، كل خطوة يخطوها كأنه يدعس على جرحه فيمزقه، كيف أحبَّ تلك العينين المشتعلتين غضباً وانتقاماً.

وقفَ عند ركام مبنى دُمّر نصفه، أخذ نفساً عميقاً، لكنه لم يملأ صدره بالراحة، لأن شعوره بالذنب أثقل، لقد أحبها... بكل ما في قلبه، وهي انتقمت... بكل ما في عقلها.

أغلق عينيه لحظة، شعر بخيبة الألم، بخذلان الثقة، ووجع الحبّ الضائع.

كيف يمكن لحبٍّ أن يتحوّل إلى ألمٍ بهذا الشكل؟

كيف يمكن لقلب أن يكون صادقاً... بينما الآخر يدفعه نحو الانتقام؟

خانته دمعة صغيرة، مسحها، لن يسمح لنفسه أن يبكي علناً، كل شيء داخله يبكي، لكنه... لا يريد الدموع لعينيه.

همس بألم بعد أن جلس على حجارة بيتٍ هُدّم جزء منه:

- أنا... لم أكن هناك... لم أقتل أحداً... لكنها لم تصدّقني... لم تصدّق قلبي... والآن... كل ما تبقى لي... قلب محطّم... وخذلان وبعض الألم.

ظلّ ساعات بين الأنقاض يستذكر حبّه لها، ثم سرعان ما تذكّر أنها ما أحبته وإنما أرادت الانتقام منه على فعلٍ هو بريء منه.

استلقى مالك على سريره، نومه كالعادة لم يكن هادئاً، فسرعان ما غرق في كابوس مرعب.

إذ رأى نفسه واقفاً في شارع مهجور، المباني تحترق حوله، أصوات القصف تتردد في رأسه، ثم ظهر وجه سارة تبتسم له ابتسامة حزينة، عيناها مليئتان بالدموع، همست بألم:

- مالك... لمَ لمْ تحمني؟

اختفت سارة، فوجد نفسه في قبو مظلم، أصوات صرخات أطفال _صدى جريمة الماضي_ وكلّهم ينظرون إليه بعيون تائهة.

وجد صبا أمامه، حاول إمساك يدها، فابتعدت عنه، وجه يعرفه ظهر أمامه، يعرف صاحب هذا الوجه، بكى كثيراً كطفلٍ ضاع من والدته، إنها أمّه، لقد عاد طفلاً صغيراً، هذه أول مرة يحلم بها، اقترب منها، فابتعدت وغابت عنه، ظلّت يده ممدودة، ينادي بصوتٍ لا يسمعه.

عادت سارة للظهور أمامه، ثم سرعان ما اختفت، كل شيء انهار حوله، كل من أحبّهم اختفوا، وظلّ وحيداً في عزلته.

ثم صوت صاروخ اقترب منه، انفجر قرب القبو، أصوات استغاثات، ودمار حوله، لكنه ما اهتمّ لذلك، فسارة تناديه أن يخرج من ظلامه، مدّ يده ليلمس يدها، لكنها ابتعدت حين انهار باب القبو فسدّ المدخل، وجهٌ اقترب منه لا يعرفه، لكنه شعر أنه يحمل دمه، لم يقل سوى "سامحني... لأنني أصل الخطايا" واختفى، إنه والده الذي لم يره سوى مرّة واحدة _وكانت قصيرة_ نادى سارة بأعلى صوته، ثم همس:

– لِمَ تركتِني؟ أنا وحدي الآن يا سارة.

واستفاق فجأة على دقات الباب، نظر إلى الساعة، إنها السابعة مساء، لقد أيقظه الطارق من كابوس أشعره أنه في واقع لا يرغبه، نهض من سريره بتثاقل، ارتشف القليل من الماء، ثم جرّ قدميه إلى الباب ببطء، لقد توقّع كالعادة أن يكون يزن هو الطارق، لكن المفاجأة كانت حين فتح الباب أنه وجد ديمة تقف أمامه بجسد يرتجف ألماً، وبعينين مليئتين بالدموع.

صُدم من رؤيتها واقفة أمام بابه، لم تدخل، اكتفت بالوقوف، ابتعدت قليلاً، أسندت ظهرها إلى شجرة الزيتون، مسحت دموعها بكم معطفها، ثم قالت بصوتٍ مرتجف:

- لقد ظلمته... ظلمته كثيراً.

أخذت نفساً عميقاً، ثم أضافت والدموع تتدفق على وجنتيها:

- اتهمته، تخيّل! قلتُ له إن دم أبي على يديه... وأنه المسؤول... وهو أقسم... أقسم أمامي أنه بريء... وأنا لم أصدّقه... لم أصدّق قسمه ولا دموعه، ولا رجفته.

مسحت دموعها المرتجفة بيدها، ثم استرسلت:

- كيف استطعتُ أن أشكّ فيه؟ كيف سمحتُ لنفسي أن أشكّ في قلبه النقي؟ كان معي في كل لحظة... حمل خوفي حين لم يكن أحد حولي، وكلّ هذا الوقت كنتُ أظلمه وأظلم قلبي.

نظرت إلى مالك المستند بظهره على جدار الكوخ يستمع لهذيانها، ثم أكملت بكلماتٍ متقطّعة:

- أنا أحبّه... أحبّه حبّاً عميقاً... لكنني خائفة من المواجهة، خائفة من نار البعد، ومن لهيب الفقد.

ظلّ مالك صامتاً يراقبها بعينين مليئتين بالدهشة والوجع، يستمع لكل كلمة، لكل نفس، لم يتدخل، فقد شعر بالألم والحب الذي يفيض من قلبها، بينما أكملت هي:

- إن رأيته الآن... فسأخفض نظري، لن أستطيع رفع عيني إليه... كيف أخبره أنني شككتُ بضميره؟ كيف أخبره أنني خذلته أكثر من الوثوق به؟

رفعت عينيها إلى مالك، وقالت:

- لكن كان عليّ إخباره... لم أستطع مواجهته... فجئتُ إليك... ربما لأنك تسمع دون أن تُحاسِب... ودون أن تجرح.

تركها تندب حبها ودخل الكوخ، حمل سيجارته، أشعلها، وخرج إليها، وجدها ما تزال تحتضن نفسها من البرد، عيناها منتفختان من أثر البكاء، سحب الدخان من رئتيه، ثم قال بصوتٍ هادئ:

- ما حدث قد مضى... لكن الاعتراف هو أول خطوة لتصحيح ما فات، لقد ظلمتِ يزن، هذا شيء يجب أن تعترفي به، ولكن له وليس للآخرين فحسب.

نظرت إليه، إنها خائفة من المواجهة، خائفة من غضب يزن، ومن نار الفقد، عبثت بخاتم خطبتها، ثم قالت بشرود:

- أنا... لا أستطيع الوقوف بين يديه، قلبي يختنق من الخوف، من احتمال أن يبتعد عني، من أن أفقده للأبد.
- الحب الحقيقي لا يُخاف، إذا أحببته وكان قلبك يميل إليه، فلتكوني صادقة مع نفسك، حتى لو خفتِ من الألم، عدم المواجهة لن يخفف الوجع... بل سيزيده ويبعدك عنه كثيراً.

نفث الدخان، ثم رمى السيجارة أرضاً، دهسها بقدمه، ثم أردف:

- وأنتِ بحاجة للجرأة... الجرأة لتخبريه بحبك، والجرأة لتعتذري عن كل ظلم بدر منك.

نظرت إليه تفكّر فيما قاله، بينما أكمل:

- اذهبي إليه، قولي له كل شيء... قبل أن يبتعد عنك... ويصبح الندم أثقل من قلبك، وصدّقيني... مواجهة الحقيقة أقوى من أي خوف.

شكرته لأنه أوصلها إلى بداية الطريق، وعليها المضي فيه لتصل إلى قلب يزن بنجاح، قبل فوات الأوان.

أما هو فدخل الكوخ بعد أن ذهبت، جلس خلف طاولته، مزّق ورقة من الدفتر، وبدأ يكتب:

سارة...

أكتب إليكِ الآن في ساعة يتهدّل فيها الليل فوق كتفيّ كأنه سجن آخر.

لا أعرف لماذا اخترتُ الكتابة لكِ... ربما لأنني أحببتك بطريقة لم أعرف كيف أعيشها، ولا كيف أدفنها، وربما لأني تعبتُ من حمل قلبي وحدي.

سارة...

أريدك أن تعرفي الحقيقة كما هي، دون أن أجمّلها، ودون أن أرتّب الظلام ليبدو أقلّ سواداً.

الحرب يا سارة سرقت منّا كل شيء.

الحرب علّمتنا أن الخوف يمكن أن يصبح روتينياً، وأن الموت يصبح عادياً، مثل نشرة الأخبار.

أتذكرين حين كنا نسمع أصوات الانفجارات فنكمل حديثنا، كأنّ لا شيء يحصل.

لو عشتِ ما عشته، لفهمتِ كيف يتغيّر الإنسان حين يضطر لتعلم القسوة دفاعاً عن نفسه.

أنا لم أقاتل مع ذاك الطرف كما ظنّ كثيرون...

لم أكن معهم يوماً...

كنت أشتري منهم السلاح... لأقتلهم به.

كنتُ أقاتلهم لأنهم لم يعترفوا بي... لأنني كنتُ ابن مدينة لا تمنح أبناءها الهويات إلا بعد أن تُدمر.

أنا الذي حرمتني هذه الأرض من أبسط حقوقي، من أوراق تثبت أنني منها، ومع ذلك كنت أدافع عنها، قد يبدو حجم التناقض مرعباً، لكن الحرب تفعل بنا أكثر من ذلك.

أعرف أنكِ كنت تظنين أنني صرتُ شيطاناً، مجرّد ظل أسود ينتقم من كل شيء.

لكني في الحقيقة كنتُ أختار أهدافي بدقة... لم أكن أريد للمدينة أن تحترق، بل أريد لمن ظلموني أن يشعروا بما شعرتُ به كل يوم.

لم أرغب بأن أصبح شيطاناً كاملاً... كنتُ أحمل جزءاً إنسانياً في أعماقي، لكنه كان يحترق ولا يراه أحد.

سارة....

هناك صور كثيرة لا تزال تعيش في داخلي.

كم من أم في المدينة كانت تضع الخبز في التنور، وهي لا تدري هل ستطعم أبناءها أم تنعيهم.

كم من بيتٍ دخلناه معاً لنرى جثثاً مكدّسة وأناساً أضحوا أرقاماً.

الحرب لم تترك لنا ذاكرة...

لم تترك لنا طفولة...

ولا بداية...

ولا نهاية...

تركت لنا بقايا صور فحسب نطالعها بخوف، صور تلسع القلب كلما حاولتُ النوم.

سارة...

لقد زارتني ديمة الليلة، جاءت تبكي ندمها، لأنها ظلمت يزن، واتهمته بقتل أبيها، بينما هو بريء مما نُسبَ إليه، كان واضحاً أن قلبها مملوء بنار الحب والشوق والندم.

أتعرفين: أحياناً نرى حب الآخرين فندرك مقدار وحدتنا، وكم فقدنا، وكم تغيّرنا حتى لم نعد نصلح للحب.

والآن دعينا من ديمة، ولأخبرك بشيء، لم أخبرك إياه من قبل...

كانوا يقولون بأن الوطن غالٍ، ولم يخبرونا أنه سيطالبنا بأغلى ما نملك.

وأنا يا سارة قدّمتُ له كل شيء... قدمتُ شبابي، وحلمي، حتى طفلي.

نعم... أنا الذي قتل ابنه بيديه يوم ولد، لأنني آمنتُ أن هذا العالم لا يستحقه.

كنت أريد أن أصبح قوياً... قوياً لدرجة يخافني الجميع، فالناس لا يحترمون إلا القوي.

كنتُ حين أنزل إلى القبو وأرى وجه جمال الشاحب، أشعر بقوة لم أعشها يوماً، كأنني أخيراً قادر على فعل أي شيء دون أن يوقفني أحد.

لكن هذه القوة لم تكن فخراً... بقدر ما كانت مرضاً وهشاشة مستترة، وحقاً من حقوقي المسروقة.

كان هذا نصيبي من وطنٍ لم يعطني حتى اسمي.

أكتب لكِ الآن لأنني لم أعد احتمل الصمت.

أكتب لأنني لا أملك سوى الكلمات... ولأنك الوحيدة التي يمكنها أن تسمع دون حكم، وأن تفهم دون أن تهرب.

أكتب لك لأن ليل الشتاء طويل... ولأن الألم أطول.

ولأنني رغم كل شيء مازلتُ أحبك.

ليس كما يحب الرجال في زمن السلم، بل كما يحب الناجون بعد الحرب، بحذر، برعشة، بخوف أن نفقد من تبقى.

سارة...

هذه رسالتي...

وهذا أنا... بلا بطولة... بلا قناع.

مجرد رجل حاول أن يعيش في زمن يقتل كل شيء... إلا الوجع.

مالك

ما إن انتهى من خط حروف اسمه على الرسالة حتى طُرق بابه، لقد عرف من الطارق، لن يكون سوى يزن، أتى ليشكو همّه، توجّه إلى الباب وفتحه، دخل يزن متجهم الوجه، وارتمى على سرير أخيه، سرعان ما لمح علبة التبغ، حملها وسحب منها واحدة، أشعلها وبدأ يدخن بشراهة، في حين ظل مالك يتأمل غرابة أخيه، أغلق الباب خلفه، جلس على الكرسي المقابل للسرير، تأمل ملامح أخيه الغاضبة والحزينة، ثم كسر الصمت حين سأله:

- ولم كل هذا الغضب؟

وكأنه أعطاه الإذن كي يبوح بألم يختلج في صدره، فصرخ بقهر رجل:

- لا أعرف كيف أشرح لك ما يعتصرني... كيف أتحمل كل هذا الألم، الحب الذي كسرني، والخذلان الذي نال مني.

نفث يزن الدخان من رئتيه، ثم وضعها في الصحن المخصص لها، نظر مالك إلى حزن شقيقه، ثم قال:

- ديمة تحبك، قلبها في غرامك صادق، لكنها تسرّعت في انتقامها.

صرخ في وجه أخيه:

- لا تقل إنها تحبني، هي لم تترك فرصة لهذا الحب أن يتقدّم، بل سمحت لعقلها بالانتقام، كنتُ حين أحادثها أُدهش من ردّة فعلها، لم أكن أعلم أنها لا تبادلني الغرام، ثم فهمتُ أنها لم تحبني يوماً، وإنما جعلتني أداةً بيدها لتنتقم لدماء والدها.

فتح مالك فهمه للحديث، لكنه أسكته بإشارة من يده، لا يريد أن يزيد ألمه أكثر، أنهى حديثه بقوله وهو يقف:

- إن كنتَ قد كتبتَ شيئاً لسارة، فهاته.

طوى مالك الرسالة، ومدها لأخيه، أخذها وخرج من الكوخ، حين مرّ بجانب المخيّم، لمحها منشغلةً بنشر الغسيل.

التقت نظراتهما... توقف الزمن عند هذه اللحظة، لمح يزن الندم في عينيها، أما هي فلمحت في عينيه عتاباً ووجعاً.

تجمدت ديمة حين رأته يقف بعيداً عنها، انسكبت دموعها، فيما قلبه ينبض بالحب والخيبة والحزن، تركها ومشى دون أن يستدير إليها، خرجت أمها على صوت بكائها، عانقت ابنتها، فيما صاحت ديمة:

- لقد كان هنا يا أمي ولم يحدّثني، في عينيه عتاب شقّ قلبي نصفين.

- لماذا لم تتقدمي وتعتذري منه.
- أعلم... أعلم أنني أخطأت... لقد ظلمته... لقد خذلته... لقد... لقد تركت عقلي يقرر بدلاً مني، لكن الآن... خفت... خفت يا أمي من أن أفقده أكثر.
- الخوف سيبعدك عنه أكثر، ما دمتِ قد ندمتِ على ما فعلته، فاقتربي منه ولا تترددي، لأنك السبب، أنتِ من دمّر هذه الثقة، أخبرتك أن تواجهيه، لا أن تحاولي قتله.
- لم أقصد... لم أكن أريد... عقلي من دفعني للانتقام... أنا نادمة... نادمة أكثر مما تتصوّرين، كل ثانية تمرّ دون أن أراه يزيد ندمي.

حضنتها أمها وسحبتها إلى داخل الخيمة.

بينما وصل يزن إلى منزله، أرسل رسالة إلى صبا عبر تطبيق الرسائل، يخبرها أن تزوره غداً لتأخذ الرسالة إلى سارة.

في صباح اليوم التالي تسلّمت صبا الرسالة من والدتها، عادت على عجل إلى منزلها، دخلت غرفتها، فتحت درج الكومدينة بعناية، حملت الرسائل بين يديها، أخذت نفساً عميقاً قبل أن تخرج إلى ساحة الدار.

وفي الساحة كانت سارة تجلس جوار باب القبو، على كرسي من القش، اقتربت صبا منها، ومدّت يدها بالرسائل قائلة:

- هذه لكِ... من مالك... أخبرني يزن أن الرسائل وصلت إليكِ بعد أن كانت في طريقها إلى عنوان خاطئ، وجدها مصادفة، أعطاني إياها اليوم.

تجمّدت الدماء في عروقها، ونظرت بشك إلى صبا، ومع ذلك مدّت يدها المرتجفة، وأخذتْ الرسائل، ابتسمتْ بمرارة وقلبها سعيد، فمالك لم ينسها.

شكرت صبا، نزلت إلى القبو وارتمت على سرير مالك، ألقت الرسائل أمامها كأنها مجموعة من الجروح المكتوبة بالحبر، كل واحدة منها تحمل حياة مليئة بالقهر.

قرأت الرسالة الأولى... ثم الثانية... ثم الثالثة، ثم غاصت دموعها بين الحروف.

كل رسالة كانت جرح لم يشفَ، كل كلمة تفيض حباً، ألماً، ندماً، ذكريات لم تعشها، لكن شعرت أنها ملكها منذ البداية.

كل كلمة من الرسائل جعلتها ترى مالكاً كما هو... إنساناً ضعيفاً ومتألّماً، لكنه قويّ في حبّها، قوي في انتظارها، قوي في صمته رغم كل ما حدث.

نزلت صبا إليها، فوجدتها في حالة صدمة، عيناها على الرسائل ودموعها تنسكب بصمت.

اقتربت منها، وضعت يدها على كتفها، ثم قالت:

- لا تبكي هكذا، أعلم كم كنتِ تنتظرين، ولكن انظري... كل هذه الرسائل لكِ... دليل أنه لم ينسك.

مسحت سارة دموعها، وقالت:

- ظننته نسيني، وما عدتُ في قلبه.
- مهما قسا قلبه، فهو يلين لكِ.

- أخشى أن يكون قد تعب من الانتظار، فأخسر حبّه للأبد.
- لا تقولي مثل هذا الكلام، ربما تأخرت الرسائل قليلاً، لكنه مازال يكتب لكِ.

عانقتها صبا، وقد شعرت أن النهاية حانت، ربما تعود سارة إلى مالك قريباً، وحينها قد تكون نهاية علاقة صبا مع عمر.

مرّت أيام منذ أن انقلبت حياة يزن وديمة رأساً على عقب، أيام كانت مريرة على ديمة، حاولت فيها جاهدة أن تصل إلى يزن فتجد طريقاً للحديث معه.

كلّما جالت في ذهنها لحظة اقترابها من حافة الجنون، غلا قلبها بالغضب والألم معاً، غضب من نفسها، وألم لأجله.

وأخيراً رأته يخرج من الكوخ، أسرعت تناديه، وقف صامتاً يتأمل شحوب وجهها، لقد نحفت كثيراً، ما عادت تلك الفتاة التي أحبّها يوماً.

وبينما يتأمل ملامحها كانت تعتذر على جنونها، ولحظات تكذيبها له، قال بصوتٍ منخفض لكنه يحمل نبرة قاسية:

- ظننتني فهمتك حين خيّل إليّ أنكِ أحببتني بكل جوارحك، لكنني أدركتُ في النهاية أنني لم أفهمك أبداً حين خذلتِني بهذه الطريقة.

ارتجفت ديمة، ربما برداً، وربما من أثر كلماته، ثم ردّت بصوت مليء بالندم:

- لم أُرِد أذيّتك، لم أعلم ماذا أفعل... كنتُ خائفة...

تقدّم منها خطوة، فيما عيناه امتلأتا بالألم، وقال:

- خائفة؟ كنتِ على وشك أن تقتلي شخصاً أحبك، شخصاً لم يصدّق وأنكر فعلتك، كنتِ تحاولين قتلي... وأنا... أنا من أحبك أكثر من أي شيء، وأكثر من نفسي.

انسكبت عبراتها، قالت بصوت متحشرج:

- كنتُ أفكر أنك من عناصر الحاجز الذين قتلوا أبي، كنتُ أظنّ أنك... أنك تورّطتَ في دمه... وأنك السبب... لذلك ظننتُ أن تفكيري منطقي، لكن... كنتُ مخطئة، ولم أعرف الحقيقة.

أشاحَ وجهه بعيداً عنها، زفر بغضب، ثم أدار وجهه إليها، وقال بصوت غاضب:

- مخطئة؟ الحب ليس عذراً للشك، لا للتفكير بالقتل، لقد كنتِ قريبة جداً، لكنكِ بغبائك قضيت على كل شيء بيننا، أحببتك ووثقت بك، وأنتِ حطّمتِ كل شيء بشكوكك.

اقتربت ديمة منه، حاولت لمس يديه، لكنه رفعها، وأشار لها بعدم الاقتراب، ثم أردف:

- دعيني أتكلّم... لقد خذلتني... خذلتني أكثر مما تتصوّرين، فيما كنتُ أضع قلبي بين يديكِ كنتِ تبحثين عن وسيلة لتدميري.

أغمضت ديمة عينيها، ارتجف جسدها، وقالت بنبرة متوسّلة:

- أنا آسفة بحق السماء... لم أعلم... لم أدرك أنني جرحتك، لم أفكّر إلا بمقتل والدي، كنتُ أظنّك السبب فيما حصل، لذلك كنتُ خائفة على الدوام.

سكتت لحظة، فقال بصوتٍ خافت لكنه خرج حاداً:

- الخوف لم يكن عذراً... قلبي مازال يؤمن بكِ، رغم كل شيء... رغم خذلانك، رغم الألم الذي سببته لي، لكن الحب أحياناً لا يكفي.

غمرت دموعها وجهها وهي تراه يقرّ بالنهاية، فصاحت بألم:

- أرجوك سامحني، لم أعلم بصدق كلامك.

تأمّل ارتجاف جسدها، ثم استدار للرحيل، وقبل أن يخطو قال لها دون أن يلتفت:

- الكلمات لا تكفي، ربما الوقت قد يعيد الثقة المفقودة بيننا... إن عادت.

وغادرها دون ترك فرصة للحديث، لكنها شعرت أن هناك بعض الأمل في كلامه، في عودتها إليه.

جلست صبا مع سارة وعمر في الصالة، كان يوسف يدرس جوارهم، ألسنة الحطب تترقّص في المدفأة، تنشر دفئها في الصالة، بينما المطر يغسل نوافذ

المنزل، صوت قطراته الثقيلة يطرب آذانهم، هناك حديث دائر بين ثلاثتهم _عن عودة سارة إلى مالك_ فقالت صبا:

- لكنّكِ لا تستطيعين أن تظلّي هكذا يا سارة، لا يمكنك أن تمضي أيامك محاصرةً بالحزن، مالك يحبّك، وأنتِ تعرفين أنه يستحق فرصة منك.

نظرت سارة إلى النار وهي تترقّص في المدفأة، قلبها ممزق بين ثلاثة أشياء: نار حبها لمالك، نار حب عمر الصامت لها، ونار الوفاء لصبا التي كانت دوماً سندها، ردّت بهدوء:

- لا أعرف، ولا أستطيع اتخاذ أي قرار، قلبي ممزّق يا صبا، كل شيء بداخلي يتصارع.

أمسك عمر فنجان قهوته، ارتشف القليل منه، ثم أعاده إلى الطاولة، قال بصوتٍ حازم:

- لا تعودي إليه، لن يعود أي شيء إلى ما كان عليه، مالك لا يستحقك أبداً.

صاحت صبا وبداخلها غضب من كلام عمر:

- أنت تعرف حبّه لها، وكلّ يوم يزيد البعد بينهما ألماً وجفاء.

ابتسم عمر ابتسامة مريرة، وقال:

- وماذا فعل هذا الحب العظيم!؟ لقد قتل وليدها قبل أن تحمله بيدها، لا تتركي حبها يموت في يد من لا يستحق.

رفعت سارة رأسها إليه، وقالت:

- لكنني أحبه، حتى لو لم أسامحه، وربما ذات يوم أجد نفسي قادرة على مسامحته، لكن ليس الآن.

ردّت صبا على كلامها:

- امنحيه فرصة أخرى، أنا متأكدة أنه لن يخذلك، مالك بحاجة إليك، وأنا بحاجة لأن أراكِ سعيدة مع من اختاره قلبك.

رفع عمر عينه إلى النار، وكأن الجمر في المدفأة يعكس غضبه الداخلي، ثم قال:

- إذا عدتِ إليه... فربّما تخسرين قلبك، لكن ليست كل الأخطاء تُغفر بسهولة.

نظرت إلى المطر خارج النافذة، شردت في كلامها قليلاً، ثم قالت وهي تتأمل قطرات المطر:

- لا أستطيع اتخاذ قرار الآن، كل شعور بداخلي يقودني إلى اتجاه مختلف.

لمست صبا يدها في نوع من الدعم، وقالت:

- أعرف أن الأمر ليس بهيّن، لكن لا يمكنك أن تظلّي محاصرة بهذا الصمت، يجب أن تكوني صادقة مع داخلك في اتخاذ قرار لحياتك.

وضع عمر فنجان قهوته بعنفٍ على الطاولة وصرخ في صبا:

- يجب أن تعرف من يستحقها لتقرر في أي اتجاه تسلك، إن عادت إليه فستعود الجروح مجدّداً للواجهة.

تجاهلت سارة كلامه، والتفتت إلى صبا قائلة:

- لا أستطيع العودة الآن... وكأن شيئاً لم يحدث.

ردّت صبا عليها:

- الخيارات ليست سهلة يا سارة، لكنها دائماً تبدأ بخطوة واحدة، خذي وقتك، ولكن لا تحصري قلبك بين خوفٍ ووفاء، الحب لا يُقاس بالوفاء فقط، بل يُقاس أحياناً بالتحرر من خوفك.

لم يعجب كلامها زوجها، فقال وهو يوجّه حديثه لسارة:

- وأنا أقول لك، لا تدعي الماضي يقرر مصيرك، إذا كان قلبك مازال متعلّقاً بمالك، فاعلمي أن طريق العودة محفوفاً بالألم.

شعرت سارة بدوّامتين داخل صدرها، إحداهما تدفعها للعودة إلى الماضي، والأخرى تسحبها للبقاء في الحاضر، وهي تائهة بين نارين، نار عودتها المستحيلة إلى قاتل ابنها، ونار الهروب من هنا والوفاء لصبا.

كان يزن جالساً على طرف السرير في كوخ مالك، وهذا يعدّ إبريق الشاي، قال يزن بهدوء:

- المدينة تغيّرت عمّا كانت عليه، إنها تتعافى... لكن ببطء، لقد بدأ الناس ينظرون إلى المستقبل، إلى ما يمكن بناؤه، بدل النظر إلى ما

خسروه، كل من في المدينة بدأ يتحرّك نحو الإصلاح، لم أحسب أنني سأرى هذا اليوم.

ابتسم مالك بصمت وهو يسكب الشاي في الكأس، فيما صمت يزن حين جالت في ذاكرته ديمة وأنه كان يجهّز لحفل زفافه، انتبه مالك إلى حزن أخيه، فسأله:

- ما بكَ؟ لم سكتَّ عن إكمال الحديث؟

حمل قدح الشاي الساخن بين يديه، وقال:

- قلبي معذّب بما أحبّ يا أخي، لا تصدّقني إن قلتُ لك أنني تعافيتُ منه، إنني دائم الكذب في هذا، أعلم أن ما فعلته لا يُغتفر، لكن رغم كل شيء لا أستطيع وقف مشاعري الزاحفة نحوها، لا أستطيع أن أكرهها حتى لو كانت مخطئة، ولو لم أقدر على مسامحتها.

نظر مالك إلى يزن بعينين واسعتين، ثم قال بصوتٍ هادئ:

- يبدو أن كل شيء مرتبط بالحب، وكل حب له ثمنه، مازلتَ تحمل قلباً كبيراً، وهذا يجعلك تغفر لها في يومٍ ما.

تنهد يزن، ثم رفع وجهه نحو السقف، وكأن المكان كلّه يحتضن أفكاره، وقال:

- نعم... الحب أحياناً يربكنا ويؤلمنا، يجعلنا نقترب من حافة الجنون، لكنه أيضاً يجعلنا أحياء، ويجعلنا نتمسّك ببعض الألم.

ارتشف من قدح الشاي، في حين طلب مالك منه الانتظار ريثما يكتب رسالة جديدة _ستكون الأخيرة_ فإما أن تعود إليه، وإما أن... صمت وهو يفكّر:

كيف سيتحمّل غيابها عن حياته العمر كلّه، هذا العمر الذي يرفضه لأنها ليست فيه.

استأذن منه يزن أن يجلس في الخارج إلى حين الانتهاء من كتابة الرسالة، وحين فتح الباب لسع الهواء البارد وجهه، تأمّل الأرض المملوءة بمياه الأمطار، نظر إلى المخيّم الواسع، كلهم مختفون داخل خيمهم، وحدها كانت على صخرة رطبة، تستند بظهرها إلى شجرة كبيرة، اقترب منها، وجدها ترتجف برداً، شعرها المبتلّ قد التصق بخدّها، يداها متشابكتان أمام صدرها كأنما تحاولان حماية ما تبقى منها من الصقيع.

ناداها بصوتٍ خافت...

رفعت رأسها إليه ببطء، عيناها مليئتان بالدموع، كأنها تنتظره، وقفت، اقتربت منه بخطوات مرتجفة، قالت تتوسّل عفوه:

- آسفة... آسفة لكل شيء، لكل لحظة شعرتُ فيها أنني بعيدة عنك، لكلّ مرّة جرحتكَ فيها، ولكل لحظة ظننتَ فيها أنني سأبتعد، ولآخر لحظة بيننا، أرجوك امنحني فرصة أخرى، لن أخذلكَ فيها، أعدك بذلك.

نظر إليها بعينين مملوءتين حبّاً وعتاباً، ثم قال:

- كل شيء بداخلي مازال متضارباً، أحبّك أكثر من أي شيء، لكني لا أستطيع نسيان جرحك لي.

أمسكت يديه، وقالت بألم:

- لم أكن أعلم ماذا أفعل، كل ما فكّرتُ فيه ألا أخسر ما بقي لي، لم أقصد أذيّتك إطلاقاً.

ابتعد عنها وأشاح وجهه، ثم قال:

- كنتُ مغرماً بكِ بلا حدود، وها أنتِ تقتربين من قلبي مرّة أخرى، وكأنك لا تعرفين مقدار الألم الذي تركته ندوباً بداخلي، كل شيء فيك يذكّرني بما كدتِ تفعلينه.
- أعلم أن الكلمات لا تكفي، وأن الجروح عميقة، لكن قلبي لك... كلّه لك... وكلّ ما أطلبه فرصة ثانية لأثبت لك أن حبي حقيقي.

اقترب منها ببطء كأنه يوازن بين الحذر والحب، أخذ يدها بين يديه، شعوره بالبرد تلاشى أمام حرارة قلبها.

- لا أستطيع إيقاف حبي لكِ، لكن هذا لا يكفي، أحتاج إلى رؤية وفائك، أحتاج أن أشعر بالأمان، أن أعرف أنَ ما بيننا لن يُهدّ بعد اليوم.

ابتسمت بخفوت ودموعها اختلطت بابتسامتها، ثم قالت:

- أعدك... سأثبت لك أن حبي أعمق من كل ألم سببته لك.
- إذن هذه فرصتك، املئيها بالصدق والوفاء، وإن نجحتِ فربما يمكن للحبّ أن يعيدنا من جديد.

وفي الكوخ كانت أصابع مالك تكتب ألمه إلى سارة:

عزيزتي سارة...

أكتبُ لك هذه الكلمات والدموع تعانق روحي، والقلب يئنّ بين الحب والخوف وذكرياتٍ لم تفارقني يوماً، حبي لكِ أعمق من أي شعور، أعمق من أي ألم مررتُ به، لكنْ في داخلي جروحاً لا تُرى، جروحاً صنعتها قسوة الحياة، والناس ونظراتهم الساخرة، وكلماتهم القاسية.

أتذكّر ذلك اليوم الذي أخبرتني فيه أنك حامل... شعور لم أستطع تفسيره إلا بالخوف، خوفي لم يكن منك، بل مما قد يكون... ماذا لو جاء يشبهني؟ مسخاً... مشوّهاً كما وصفته الطبيبة، وكما همست به الشائعات، ونعتني به الناس.

كل ذلك عاد بي إلى ذكرياتٍ طالما حاولتُ نسيانها، ذكرياتٍ عن سخرية الناس، عن تنمّرهم، واستهزائهم بي، شعورٌ لم أرغب أن يُحمل على من أحب.

ورغم كلّ ذلك تمسّكتِ بي، وأنتِ صابرة، قوية، حنونة، لم تتركي خوفي يسيطر عليك.

وحين أنجبتِ، نسيتُ كل وجعي، كل ألم التنمر، وكل كلمات الاستهزاء.

لكن... لكن عندما سمعتُ كلمات الطبيبة عن المسخ، وكيف نظرت لي، حينها عاد كلّ شيء مرّة أخرى كجحيم يصرّ على عدم الرحمة، ذكرياتٌ جاهدتُ لنسيانها، وكان الأمر عسيراً عليّ. لكن في لحظة عادت لتطاردني، لم يكن ذنبي أنني خلقتُ هكذا، لذلك لم أجد سوى قرارٍ واحدٍ، أن أخلّصك وأخلّص نفسي، وأضع نهاية لعقدة الشيطان.

لقد فعلتُ ما فعلته... لا حباً للجحيم، بل حبّاً لكِ، وحبّاً لكل ما نحب، لكل ما يرفعنا فوق الألم، لم أستطع تركك تتألمين، أو ترثين الألم الذي كنتُ أحتويه بداخلي، كل ما أردته التحرر من قيود الماضي، وأن تكوني سعيدة، رغم كل شيء.

والآن يا سارة... إنه يعاقبني في كوابيسي، يصرخ كلّ ليلة بين يديَّ، أحاول ابتلاع صرخاته بعناقه، فيختفي من يدي، وكأنه ما كان، أحاول دفن الخوف، ألم الماضي، والأشباح التي لا تتركني، أحياناً أشعر أن قلبي لم يتوقف عن الألم منذ تلك اللحظة.

سارة أحبك...

لكنني شعرتُ أن هناك ضوءاً، شيئاً أعطاني قوّة جديدة، صار لدي هوية، أستطيع بها النزول إلى المدينة دون أن يسألني أحد "من أين أتيت" ولكن لا أريد ذلك، أريد رؤيتك أنتِ فقط، أنتِ من كل المدينة، ومن كل الحياة.

لقد عزفتُ عن الدنيا، عن شهرتها، زهدتُها، لذلك بحثتُ عن الطبيب جمال، وجدته يعيش في حالة مزرية، هو وأبناؤه، منحته القصر بكل ما فيه، وجئتُ هنا، بنيتُ هذا الكوخ بجانب المخيّم، لأنه يحمل جزءاً من معاناتي، يحمل تاريخي، فجميعنا مشرّدون في أراضي هذه المدينة.

الناس هنا يحملون وجع المدينة الأكبر، مازالوا في الخيام ينتظرون العودة إلى وطنهم، لكن مازال الدمار كبيراً، وشوارعهم تحمل معاناة الحرب، ربما كما أخبرني يزن بأن جميعهم بدؤوا في البناء، ونسوهم هنا في هذا السهل الممتد.

وسأظل لآخر لحظة أقولها "أنني لم أحب أحداً غيرك كحبي لكِ" ولن أدع امرأة تصل إلى قلبي الذي وصلته وحدك، وسكنتِ داخله.

سارة...

سألتُ صبا ذات مرة، هل سيقبلني أحدهم؟ وكنتِ وحدك من تقبّلتني.

لذلك أخشى أن تتمادي في الغياب، لأن مالكاً لن يقبله سواك.

اغفري يا سارة...

اغفري لتعيشي مع مالك الجديد.

مالك

حمل الرسالة بيد مرتجفة، طواها، سلمها إلى يزن الواقف أمام شجرة الزيتون، يراقب المخيم بعينين حزينتين.

في صباح اليوم التالي، تسلّمت صبا الرسالة من يزن، شكرته بهدوء وعادت إلى بيتها، دخلت غرفة سارة بعد استئذانها، وسلّمتها الرسالة، خرجت تاركة إياها مع ندوب الماضي.

حينما فتحت الرسالة، وقعت عيناها على الكلمات الأولى، شعرت بدفء وحب ملأ قلبها "عزيزتي سارة".

مع كل سطر تقرأه كان قلبها يخفق بسرعة، تجمّعت الدموع في عينيها، شعرت أن كلماته تنبض بروح حبّه، خوفه، وكل ذكرياته المؤلمة، حتى تضحياته من أجل حمايتها من الألم.

جلست ساكنة في مكانها لحظاتٍ بعد أن فرغت من قراءة الرسالة، الآن تستطيع إقناع نفسها أنها سامحته وغفرت جريمته، وبعد أن قرأت جميع رسائله أدركت أنه تشكّل من مجموعة خطايا، كلّها صنعت منه عقدة الشيطان، وبالحب سيعود إليها إنساناً طيّباً كما تمنّته دوماً.

خرجت من غرفتها تبحث عن صبا، وجدتها في المطبخ تطهو الطعام، اقتربت منها، التفتت صبا حين نادتها، ارتمت سارة في حصنها، قالت بابتسامة امتزجت بدموعها:

- لقد سامحته، أريد الذهاب إليه، أريد رؤيته يا صبا، وأن أشعر بقلبي عاد إلى مكانه.

سعدت صبا لِما قالته سارة وهي ترى سعادتها، مسحت على رأسها بحنان، وقالت:

- اذهبي إليه، كوني شجاعة، أنا متأكدة أنه بانتظارك هناك.

أومأت سارة برأسها وغادرت البيت، كان الطريق من المدينة إلى التلّة طويلاً جداً لسارة، في كل خطوة تخطوها تقرّبها أكثر من قلبه.

وصلت أخيراً إلى الباب، رفعت يديها لتطرقه، دقات قلبها تنبض بعنف، وأخيراً... طرقت الباب... لحظة قصيرة... وفُتح الباب...

اتسعت عيناه دهشة، مسح عينيه بأصابعه، إنها حقيقة وليست خيالاً، سارة على الباب تحدّق فيه بعينين ممتلئتين حبّاً وحناناً، كأن الزمن توقّف ولغة العيون وحدها تتحدث، ثم أخيراً أجلى حنجرته، وقال:

- سارة... أخيراً.

لم تنتظر كثيراً، اقتربت منه، ضمّت جسدها إليه، وأخيراً شعرت بالأمان الذي افتقدته وهي غائبة عنه، أما هو فاحتضنها أكثر، وكأنه لا يصدّق إلى الآن أنها بين ذراعيه، أغمض عينيه وأخيراً شعر بأن كل ما تنتظره قد تحقق أخيراً.

لم يكتفِ بالوقوف، حملها بين ذراعيه، دار بها في أرجاء الكوخ، تداخلت ضحكاتها مع صوت المطر الخافت على النافذة وكأنه يشاركهما فرحتهما.

جلسا على الأرضية، داعب شعرها، دار بعينيه في أركان الكوخ، كأنه يطمئن أنه في عالمه ومعه حبيبته، هذه اللحظة وحدها تستحقّ أن تُخلّد في ذاكرتهما.

رفعت رأسها إليه، نظرت إلى عينيه، أول مرّة تراه يبكي، لكنها دموع الفرح والتحرر من كل ألم، قالت بصوتٍ خافت:

- أنا هنا، أنا لكَ... لك يا مالك.

ابتسم، وقبّل جبينها، ثم همس في أذنها:

- وأنا لكِ يا سارة... أكثر مما تتصوّرين، كل لحظات الانتظار والخوف والحزن انتهت الآن.

ضجّ كوخ مالك أخيراً بالحب، بالدفء، وبالسعادة التي طالما حلم بها، هذه الفرحة وهذه المحبة كافية لتجعل قلبيهما في راحة واطمئنان.

أخيراً أُغلق باب الانتظار... وفُتِح باب الحب.

بعد أن فرغت صبا من طهو الطعام، أعدّت حقيبتها، لقد آن الأوان لاتخاذ القرار الذي طالما أجّلته، الآن قرارها حاسم ولا عودة بعده.

ارتدت ثيابها، وساعدت يوسف في ارتداء ثيابه، وقفت في ساحة الدار، تذكّرت حبّ عمر لها، هنا تغزّل فيها كثيراً، وأعلن لها أن قلبه لن تسكنه أنثى غيرها أبداً، مسحت دمعتها قبل أن يراها صغيرها الذي يقف جوارها، سألها:

- إلى أين نحن راحلون؟

لم تجبه الجواب الذي يرفضه قلبها، وترفضه هي كذلك، لو لم تعش بينهما سارة لما حدث ما حدث الآن، وما كان ليُعجب بها عمر، تشعر أنها الآن ضحيّة لخيانة لم تتوقعها.

لكنها في قرارة عقلها تدرك أن كل رجل يخون ما هو إلا رجل خائن بالفعل، حتى لو تغيّرت الأنثى.

تنهدت بعمق، أمسكت حقيبتها بيدها، ويدها الأخرى أمسكت يد صغيرها، قالت لنفسها وهي تغلق الباب خلفها:

- لن أستمر مع شخص لا يستحق ثقتي، لن أخون نفسي أكثر، ولن أسمح له أن يدمّر ما بقي لي من كرامة.

وصلت إلى بيت والدتها، ارتمت على الكنبة الصغيرة، وحين رأت نظرات أمها وأخيها المتسائلة، قالت:

- لقد تركتُ عمر.

شهقت والدتها، بينما أدرك يزن أن هناك سراً لا تريد البوح به، لذلك صمت عن الكلام حين سألتها والدتها عن السبب، فاكتفت بصمت أثقلَ كاهلَ والدتها.

وفي المساء جلس وإياها، بكت خيانة عمر في حضن يزن، بثّته خفايا كثيرة خبّأتها في قلبها، ربت على كتفها بحنان، وقلبه يشعر بمشاعر مختلفة.

ففي الوقت الذي عادت فيه سارة إلى مالك، افترقت صبا عن عمر، وهو لا يدري أيسعد لذانك، أم يسعد لهذين؟

حين أفرغت ما في جعبتها من ألم، غادرته لتنام جوار طفلها، بينما شعر بالاختناق فغادر البيت.

تراءت له المدينة الساكنة كأنها أشباح تطارد ألمه، لكن معذّبة قلبه استوقفته على ناصية الشارع، تجلس تحت ضوء عمود الإنارة _أمام الحاجز_ اقترب منها، سألها بصوت منخفض مليء بالاشتياق:

- ديمة... لماذا تجلسين وحدك؟

وقفت بعد سماعها صوتها، مسحت دموعها بطرف يدها، ثم قالت:

- شعرتُ أن الليل ضاق بي رغم اتساع السهل والمخيّم، لذلك آثرتُ المجيء إلى هنا، ربما إن عانقتُ هذا الحديد الذي لامسَ قطرات دم أبي فسأشعر بالراحة.

اقتربَ منها، ثم قال بحنان:

- لقد رحل يا ديمة، أفيقي من هذه الأوهام، ما عليكِ إلا الدعاء له.
- كل يوم أفكر به، أتذكّر وجهه، نصائحه، أتعرف أنني أراه فيك أحياناً، إنه هادئ مثلك، وأنتَ تحمل بعضاً من حنانه، لذلك أخاف فقدك، أخشى خسارتك... كما خسرته.

ابتسم لها، رفع يده ومسح دموعها، ثم قال:

- لن أتركك يا ديمة، ولن أسمح لأي شيء أن يفصل بيننا، كل ألمك هذا سأحمله معكِ، لن أدعكِ تحملين همّك وحدك.

ابتسمت لكلماته، لقد غفر جرمها أخيراً، قالت وهي تجاهد ألا تبكي:

- لم أرَ حبّاً كحبّك، ولم أشعر بأمانٍ كما شعرتُ معك، أنتَ تجعل كل شيء يبدو سهلاً، تجعل الألم يخفّ بكلمة، وتجعل الحبّ يكبر بنظرة، ثم تجعلني أتنفّس حبّك فقط.

أمسك يدها، وسارا معاً في المدينة التي شاركتهما فرحتهما، كل شيء فيها بدا أهدأ وأكثر دفئاً، وكأنّ الحياة أعادت البسمة للجميع، وأعطتهم الأمل بمستقبل مشرق حيث لا خوف... لا ألم... فقط حبّهما.

هبط مالك إلى شوارع المدينة لأول مرّة منذ فراقهما، كل شيء في عينيه جديد، كل زاوية تحمل رائحة الماضي وبعضاً من الذكريات القاسية، تشابكت يده بيد سارة، وهي تبتسم وتروي له حكايات المدينة المعذّبة.

حين وصل إلى شقّة يزن استقبله بالأحضان، حتى رندة سارعت لاحتضانه وكأنه وليدها.

أول مرة يشعر بحبّ عائلته له، رأى صبا وجوارها يجلس صغيرها يوسف، كل ما يرتاح له قلبه كان هنا، اقترب منها، مدّ يده ليسلّم عليها، أعتقد أنها ستخيّب ظنونه وتمتنع أن تمدّ يدها، لكنها كالعادة خالفت توقّعاته ومدّت يدها، كانت تشعر أنه سندها وليس صغيرها، تأمّل تفاصيل وجهها، ثم قال لها بصوت مليء بالعتاب:

- ظننتكِ نسيتني، لِم تركتني أشعر بالوحدة؟ لم دائماً تبتعدين كلما احتجتُ إليكِ؟

ارتجفت صبا، نظرت إلى الأرض تفكّر في جواب يريح قلبه المتعب، لكنها لم تجد إلا الاعتذار الذي يمقته مالك منها كثيراً.

- سامحني يا مالك... لم أنسكَ لحظة، لكن كل شيء صار صعباً عليّ، كنتُ أخشى أن أزيد ألمي، أعلم أنني خذلتك، ولكن لم أنسك، فهل تنسى الأم وليدها؟
- اعتذاراتك كثيرة بحقي يا صبا، لطالما كان يراودني شعور بالحاجة إليك، أتدرين لماذا؟

نظرت إليه بعينين متسائلتين، بينما أردف:

- لأنكِ أنتِ من أضعتني في خانة مظلمة، وحبستني في حياة لا شيء فيها إلا أنتِ، لذلك إلى الآن وبعد تجاوزي الثلاثين عاماً لم أستطع فهم سرّ ابتعادك عني وغيابك عن حياتي.

ارتمت على الأريكة، ثم قالت وعيناها شاردتان في ألسنة اللهب التي تترقّص في المدفأة:

- أعلم أنني أخطأت، لكني أعلم أيضاً أن قلبك يسع الكون لتسامح صبا.

ثم نظرت في عينيه وأكملت:

- كما اعتدتُ منك.

ابتسم لها، ثم جلس، وجواره جلست سارة، أما يزن ورندة فجلسا على الجهة الأخرى، في حين أكمل مالك عتابه الموجّه إلى صبا وحدها:

- اعذري عتابي لكِ يا صبا، كنتُ دائماً أراكِ كأمي، أنتِ من ربّيتِني، وتحمّلتِ من أجلي كل شيء، كيف لي أن أنزعج منك! كيف لي أن أغضب من قلبٍ أحبّني رغم التعب والألم!

ابتسمت صبا بارتياح، فيما نظرت رندة إلى عائلتها بارتياح، تشعر الآن أن غسّان قد ارتاح في قبره أخيراً، ها هم أولادها قد تجمعوا دون أحقاد، ودون أحزان وآلام.

في اليوم التالي وقف عمر أمام الباب يتوسل صبا العودة إليه:

- ارجعي معي... لنصلح ما يمكن إصلاحه.

نظرت في عينيه وقالت بألم:

- أي رجوع؟ لقد عرفتُ كل شيء يا عمر، كل نظراتك كانت واضحة جداً، إنها النظرات نفسها التي نظرتَ بها إليّ سابقاً.
- صبا... لا تفهمي خطأ... لم أقصد.

هزّت رأسها ببطء، ثم قالت بعتاب حاد:

- كيف لم تقصد! كل شيء كان واضحاً.

اقترب منها، فابتعدت عنه.

- أنا آسف... لم أقصد جرحك، كنتُ مغيّباً ولا أعلم ماذا أفعل.
- كفاكَ... لا أريد سماع أي أعذار، لقد فعلت ما لا يغتفر، لن أعود إليك، لن أسمح لنفسي أن أعود إلى ألم الخيانة.

تركته ودخلت إلى غرفتها، ابتلع ندمه بصمت، التفتَ ليغادر، فسمع صوتاً من الداخل يناديه.

التفتَ إلى مصدر الصوت، لم يتوقّع أن يجد مالكاً هنا، اتسعت عيناه دهشةً واختفت الكلمات من أمامه، كأنه أبكم، وقف مالك أمامه، مدّ يده يصافحه، صافحه ذاك ببطء، سأله مالك عن أحواله:

- كيف أنتَ يا ابن العم؟
- كيفَ أتيتَ إلى هنا؟
- ألا يعجبك مكوثي هنا؟ أم كنتَ تبحث عن شيء لا يمتّ لك بصلة.

صرخ فيه عمر:

- أفصح عما تقصد.
- لقد خذلتني مرّات عديدة يا عمر، وفي كل مرة وضعتُ لك الأعذار، لكن لم يخطر على عقلي أن تنظر نظرة خبث إلى من وضعتُها أمانةً لديك.

أخفض عمر رأسه خجلاً، أول مرة يشعر أن العار يتسلل إلى قلبه، لا يملك ما يقوله الآن، أدرك حجم خيانته وخسارته لكل شيء.

بخطواتٍ ثقيلة هبط الدرج، ومضى بعيداً عن المكان، صامتاً، مكسوراً.

عاد إلى البيت، دخله بصمت آلم قلبه، نظر إلى الجدران التي ضاقت وكأنها تتنفس حزنه.

نظر إلى الساحة، بدت له ضيّقة به، وواسعة بذكرياتٍ مليئة بالضحكات القديمة، كل نافذة تذكّره بابتسامات صبا التي كانت تملأ البيت دفئاً وحياة.

وقف تحت شجرة التين عارية الأوراق، يتذكّر النقاشات الطويلة بينه وبين أولاد عمه، الضحكات المدوية، الألعاب، القصص التي يروونها لبعضهم البعض، والجدالات الصغيرة التي غالباً ما تنتهي بابتسامة، بحضنٍ دافئ، بعناق صامت، كل شيء مليء بالحب والحنان، والآن كل شيء صامت، فارغ، ميّت.

دخل الصالة، ارتمى على الأريكة، أخذ نفساً عميقاً، شعر بالهواء يملأ رئتيه، نظر إلى الجدار أمامه المليء بصور العائلة، والده، عمّيه، وأولادهما.

كل صورة تذكّره بما فقده، بما خسره بسبب غبائه وخيانته.

الآن أدرك أن ما يحدث له ما هو إلا استرداد لذنب مالك، وأول مرّة يرى الصور المعلّقة على الجدار بعينين مختلفتين، لقد غاب مالك عن الصور جميعها.

انسكبت دمعة على خده، أغمض عينيه، عادت إليه ذكريات الماضي.

لقد نال عمر البيت الكبير أخيراً وهو الذي حارب الجميع في سبيله، لكنه لم ينل دفئه.

تجوّل في غرفه الواسعة، فوجدها أوسع مما يحتمله قلب واحد، وأكبر ما تحتمله روح وحيدة، في تلك اللحظة أدرك الحقيقة:

الآخرون بنوا لهم طريقاً جديداً، جمعوا شتاتهم، وقفوا يداً بيد، حتى مالك بدأ ببناء بيت سارة ليسكنا به.

وحده بقي خلفهم، يحمل المفتاح... ولا أحدٍ يفتح له الباب.

تمّت

٢٠٢٦/١/٨

من رحم الألم يولد الإبداع